

الكتاب الرابع

نظم الحكم

والحياة الإجتماعية والفكرية

في مملكة غرناطة

الفصل الأول

نظم الحكم في مملكة غرناطة

وخواصها الإجتماعية

مكانة الحضارة الأندلسية . ذوايها عقب إنهيار الخلافة . انتعاشها أيام الطوائف . ركودها أيام المرابطين وانتعاشها أيام الموحدين . ابن ميمون وابن رشد . الاضطهاد الفكري أيام الموحدين . الآداب والفنون في هذا العهد . مملكة غرناطة وخواصها الطبيعية . دولة بنى الأحمر أو الدولة النصرية . شعارها الحكم المطلق . الوزراء الطغاة . أخطار هذا النظام . حماية الشعب الغرناطي . مناصب الحكم الرئيسية . الوزارة والكتابة . قيادة الجيوش . الجيش والأسطول . قاضى الجماعة أوقاضى القضاة . الحسبة . صاحب الشرطة . اقليم غرناطة ومواردها . تقدم الرى والزراعة . غرس الحدائق . بسائط غرناطة . الصناعات الأندلسية . التجارة الخارجية . الموارد السلطانية . الضرائب . تكوين الأمة الأندلسية . أحوال المجتمع الأندلسي . الفروسة الأندلسية .

تعرض لنا الحضارة الأندلسية ، صفحة من أجمل وأروع صحف الحضارة الإسلامية ، والحضارة الإنسانية ، بصفة عامة . وقد نشأت حضارة الإسلام في الأندلس في بيئة وظروف خاصة ، واكتسبت بفعل المؤثرات التاريخية والإقليمية والإجتماعية ، لونها الخاص ومميزاتها الخاصة .

وتحتل قصة الحضارة الأندلسية ، في تاريخ الحضارات الأوربية مكانة رفيعة ، وتملاً فراغاً كبيراً . ولكنها لم تنل مع الأسف مكانها من الرعاية والدرس في المصادر الإسلامية ، ولم تكتب حتى اليوم كتابة شافية . وأغلب ما كتب عنها في مصادرنا ، شذور ونبد متفرقة غير متناسقة ، وتراجم لأعلام التفكير والأدب لم يعن فيها بدراسة الجوانب الهامة . وانه لمن الإسراف أن نقول ، إننا نستطيع أن نستعرض هذه القصة الباهرة المتعددة النواحي ، في فصل أو فصول ، من سفر يخصص لكتابة تاريخ المراحل الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية . على أننا سوف نحاول مع ذلك أن نستعرض صور الحضارة الأندلسية في ظل مملكة غرناطة ، استكمالا لموضوعنا ،

وأن نلتقى بذلك شيئاً من الضياء على النظم والأحوال ، التي عاشت في ظلها الأمة الأندلسية في مراحلها الأخيرة ، وما انتهت إليه في ميدان التفكير والآداب والفنون . وكما أن مصادرنا الإسلامية في هذا القسم من تاريخ الأندلس قليلة ضئيلة ، فهي كذلك بالنسبة لصور الحضارة الأندلسية . وقد هالكت معظم الآثار والوثائق الأندلسية المتعلقة بهذا العصر ، كما رأينا على يد الإسبان . ولم يسعفنا في ذلك سوى بعض الآثار القليلة الباقية ، التي نجت من المحنة ، ولا سيما آثار ابن الخطيب ، وما نقله إلينا المقرئ عن آثار ووثائق ضاعت ، وكان له فضل إيصالها إلينا .

وإذا كان تاريخ الأندلس السياسي ، يقدم إلينا صورة المتباينة ، من الإضطرام والركود ، والقوة والضعف ، فكذا شأن الحضارة الأندلسية ، فقد وصلت في ظل الخلافة الأموية في عهد عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر ، حينما وصلت الدولة الإسلامية إلى أوج سلطانها السياسي ، إلى ذروة القوة والبهاء ، وإن لم تصل يومئذ إلى ذروة نضجها الفكري . ولما انهارت الخلافة الأموية ، واضمحلت النظم السياسية والاجتماعية ، وسادت الثورة والفوضى أرجاء الأندلس ، وهالكت معظم الآثار العمرانية والفكرية في غمر الفتنة ، ذوت الحضارة الأندلسية مدى حين ، حتى قامت دول الطوائف فوق أنقاض الدولة الأموية ، واستطاعت بالرغم من صغرها ، وتنافسها وتطاحنها في ميدان الحزب ، أن تعيد لمحة من بهاء الدولة الإسلامية ؛ وسطعت آيات الحضارة الأندلسية في قصورها ومنشآتها ، وفي مجتمعاتها ، وأنبعت في ظلها دولة التفكير والأدب ؛ وعرفت الأندلس في هذه الحقبة المضطربة من تاريخها ، طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها ، مثل الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) وابن حيان أعظم مؤرخي الأندلس ، وقد توفى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) وتلميذه الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) . ومن الأدباء والشعراء ، ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) وابن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وعشرات آخريين من الكتاب والشعراء ، يقدمهم إلينا الفتح بن خاقان في مؤلفه « قلائد العقيان » . بل لقد كان ملوك الطوائف أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء والشعراء ، مثل الأمير العالم عمر بن الأفطس

صاحب بطليوس ، والمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، والمعتمد بن صمادح صاحب ألمرية (١) . ولكن سرعان ما انكمشت هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة ، عقب مصرع دول الطوائف ، واستيلاء المرابطين على الأندلس في سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) . وكان أولئك البربر الصحريون قوماً غلاظاً ، يؤثرون مهاد الخندية والحشونة ، ويضطرمون بالأفكار الرجعية العتيقة ، ويمقتون مظاهر الحضارة الأندلسية المصقولة ، فركدت في ظلهم دولة التفكير والأدب ، وذوى بهاء الحضارة الأندلسية . أجل سطعت في ظل دولتهم القصيرة بعض الشخصيات اللامعة ، مثل أبي القاسم خلف ابن عباس القرطبي الطبيب الأشهر ، المتوفى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) وابن باجة الطبيب الفيلسوف ، المتوفى سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩ م) ، وأبو بكر الطرطوشي الفيلسوف السياسي ، صاحب كتاب «سراج الملوك» ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، والفتح ابن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، وابن بسام الشنتمري صاحب «الذخيرة» المتوفى في سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ، وابن قرمان أمير الموشحات الأندلسية ، المتوفى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) . ولكن ظهور هؤلاء وأضرابهم في هذه الفترة ، لم يكن إلا أثراً من آثار النهضة الفكرية والأدبية في ظل دول الطوائف

وفي ظل دولة الموحدين ، التي خلفت دولة المرابطين في حكم الأندلس ، انتعشت الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسي . وقد نشأ الموحدون كالمرابطين في مهاد الحشونة والتقصيف ، ولكنهم كانوا أوسع أفقاً ، وأكثر قبولاً لثمار التمدن . وكان لدولتهم بالأخص صبغة علمية دينية . إذ كان مؤسسها المهدي ابن تومرت ، من أئمة التفكير الديني . وأبدى خلفاؤه عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون ، وأطلقت حرية التفكير والبحث ، وكانت قد صفدت في عهد المرابطين ، وأفرج عن كتب الغزالي وغيره من مفكرى المشرق ، وكانت قد طوردت ومنعت في أيامهم بالمغرب والأندلس . وفي تلك الفترة بالذات أعنى في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري ، بلغ التفكير الأندلسي ذروة النضج ، وتفجرت ينابيع النبوغ ، وظهرت طائفة من أعظم أقطاب العلم والأدب ، وفي طليعتهم أبو مروان عبد الملك

(١) توفي ابن الأفطس قتيلا بيد المرابطين سنة ٤٨٤ هـ ، وتوفي ابن عباد في الأسر سنة ٤٨٨ هـ ؛

وتوفي المعتمد بن صمادح في سنة ٤٨٤ هـ .

ابن زهر الإشبيلي الطبيب ، المتوفى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) ، وأبو جعفر بن الطفيل الإشبيلي ، المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) . وهو صاحب رسالة حي بن يقظان الشهيرة ، والإمام الفيلسوف أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ، المتوفى سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨م) ، والرئيس موسى بن ميمون اليهودي القرطبي ، المتوفى سنة ٦٠٢هـ (١٢٠٥م) .

وفي حياة ابن ميمون وابن رشد بالآخص ، ما يمثل لنا طرفاً من سياسة الموحدين تجاه التفكير ، وتردها بين التسامح والاضطهاد . فقد كان ابن ميمون من أعظم الأطباء والفلاسفة في عصره . ولكنه اضطهد ليهوديته خلال الاضطهاد العام ، الذي لقيه اليهود في ظل عبد المؤمن خليفة الموحدين ، فغادر الأندلس إلى المشرق . ونزل بمصر وخدم بلاطها ، وعين طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين . وندب للتدريس بالقاهرة . وقد كان ابن رشد بلا ريب أعظم فلاسفة الإسلام ومفكره في ذلك العصر ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) واتصل منذ فتوته بأبي يوسف يعقوب ابن عبد المؤمن ، المشرف على شئون الأندلس ، وكان الأمير مثل أبيه يجمع حوله أعلام المفكرين والعلماء ، وبرع ابن رشد في الفقه والطب والفلسفة ، وتولى قضاء إشبيلية في سنة ٥٦٥هـ ، ثم ولى قضاء قرطبة ، واستمر زهاء خمسة وعشرين عاماً ، يتقلب في مناصب القضاء والإدارة ، في ظل حكومة الموحدين بالأندلس والمغرب . وتولى أثناء ذلك منصب الطبيب الخاص لأبي يعقوب يوسف ، ثم لولده يعقوب المنصور بعد وفاته ، واهمه بعض خصومه بالزندقة ، فبنى إلى الأندلس بجوار قرطبة ، وفرضت عليه رقابة شديدة ، ثم استرد مكانته في أواخر حياته . واستدعى ثانية إلى مراکش ، حيث عفا عنه السلطان المنصور . وأعظم آثار ابن رشد هو شروحه لفلسفة أرسطو ، في المنطق وما وراء الطبيعة ، وقد ترجمت إلى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر ، وكانت مفتاح الدراسات الأرسطوطالية في العصور الوسطى . وقد كان يغمرها الغموض والحلك ، قبل أن يتصدى ابن رشد لشرحها . وغدت شروح ابن رشد في الوقت نفسه أساساً لكثير من المباحث الفلسفية ، التي ازدهرت أيام حركة الإحياء الأوربي . بل يرى مؤرخو الفلسفة أن الفلسفة الجدلية الأوربية استمدت من العرب والفلسفة العربية ، أكثر مما استمدت من قسطنطينية التي كانت

مستودعاً لترات الفلسفة اليونانية . ولا بن رشد طائفة كثيرة أخرى من الرسائل والبحوث الفلسفية والكلامية .

وكانت الفلسفة على الأغلب علماً خطراً في ظل حكومة الموحدين . وقد رأيت ما كان من اضطهاد ابن رشد وسجنه بسبب آرائه الفلسفية ، وقد كان من ضحايا هذا الإضطهاد . في هذا العصر ، مفكر أندلسي آخر هو ابن حبيب الإشبيلي ، الذي اتهم بالزندقة بسبب آرائه الفلسفية ، أيام المأمون بن المنصور ، وقتل لهذا السبب (١) . وهكذا كانت الفلسفة أيام الموحدين قرينة الإلحاد والزندقة ، وكانت خطراً يجتنبه كثير من مفكرى العصر .

وظهر في تلك الفترة ، إلى جانب هؤلاء العلماء ، جمهرة من أقطاب الأدب والشعر ، مثل أبي القاسم خلف بن بشكوال القرطبي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٣ م) . وهو مؤلف كتاب الصلة الذي ذيل به على كتاب علماء الأندلس لابن الفرضي (٢) وابن بدرون الإشبيلي المتوفى في فاتحة القرن السابع ، وهو شارح قصيدة ابن عبدون الشهيرة في رثاء بنى الأفطس ، وابن الصابوني الصدي الإشبيلي الشاعر ، المتوفى في سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) ، وقد قال ابن الأبار في حقه « ذهب الآداب بذهابه » وختمت الأندلس شعراءها .

وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس ، وكانت المعاهد الأندلسية في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية ، يومئذ مجمع العلوم والمعارف الرفيعة في تلك العصور ، وكانت مقصد الطلاب من كل فج ، وكانت مزودة بالمكتبات التي تضم أنفس الكتب والمصنفات ، في مختلف العلوم والفنون .

وعنى الموحدون أيضاً برعاية الفنون ، وأقيمت في عهدهم في معظم قواعد الأندلس ، طائفة من المساجد والأبنية الفخمة ، التي تمتاز بجمالها الفني . وكان يعقوب المنصور حفيد عبدالمؤمن ، من أشدهم شغفاً بالمنشآت الفخمة ، ومن آثاره الشهيرة بالأندلس برج مسجد إشبيلية الضخم ، الذي كان يستعمل لرصد النجوم والذي سمي فيما بعد « بالجيرالدا » Giralda ، وهو مازال قائماً إلى اليوم .

(١) نصح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ .

(٢) وقد نشر ضمن المكتبة الأندلسية في مجلدين طبع مدريد في سنة ١٨٨٣

وكذلك تقدمت الزراعة والصناعة والتجارة في عهد الموحدين ، وازدهرت الزراعة بنوع خاص ، وارتقت أساليبها الفنية ، وتنوعت المحاصيل وانتشرت زراعة الفاكهة ، في أحواز بلنسية وإشبيلية ، وتقدمت الصناعات الحربية والمدنية ، ولاسيما صناعة الأقمشة الممتازة ، والصناعات الجلدية ، وصناعة الورق وغيرها . وازدهرت التجارة وعم الرخاء . وكانت ثغور الأندلس مثل بلنسية ودانية وإشبيلية والمرية ، من أعظم مراكز التجارة الخارجية في هذا العصر .

ولما اضمحل شأن الموحدين ، وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس ، في أوائل القرن السابع الهجري ، واجتاحت الثورة معظم القواعد والثغور الأندلسية . ونهض المتغلبون يتنافسون في اجتناء أسلاب الدولة الزاهية ، شعرت اسبانيا النصرانية بدنو الفرصة السانحة ، لاقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أطراف الأندلس الممزقة ، وبدأت قواعد الأندلس التالدة ، تسقط تباعاً في يد النصارى . وشغلت الأندلس بمحنتها الغامرة ، وانصرفت إلى متابعة الجهاد ، ومدافعة المغيرين عليها بكل ما وسعت ، فانكشفت فنون السلم ، وقضاهت دولة التفكير والأدب ، وإن كانت الخنة قد أذكت لوعة الشعر ، وبعثت إلينا بطائفة جمّة من أروع المراثي ، التي مازالت تحتفظ إلى يومنا بكثير من قوتها وروعها .

وانجلت الفن الداخلية ، وانجلى الصراع بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية بعد نحو ثلث قرن ، عن سقوط معظم القواعد الأندلسية التالدة ، مثل قرطبة وإشبيلية وبلنسية ، في يد النصارى ، وانكشفت رقعة الأندلس تباعاً ، وانحصرت في الركن الجنوبي الغربي للمملكة الإسلامية القديمة ، في مملكة غرناطة الصغيرة ، التي برزت من نحر الفوضى ، واستقرت في رقعتها المتواضعة ، بين نهر الوادي الكبير والبحر ، وهرعت إليها معظم الأسر الأندلسية القديمة ، التي أبت التدجن والبقاء في ظل حكم النصارى ، ولم يمض سوى قليل ، حتى غدت مستودع تراث الأندلس القومي والسياسي ، ومستودع الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسي .

وكانت مملكة غرناطة ، بالرغم من صغرها وانكماش رقعتها . تضم ثروات عظيمة من الموارد الطبيعية ، فالي جانب وديانها الحصبة النظيرة ، توجد الجبال تحرقها

من كل صوب . وبها الكثير من الثروات المعدنية ؛ وتفيض الأنهار والنهيرات العديدة على بسائطها الماء الغزير . وكانت ثغورها وهي ثغور الأندلس الجنوبية ، ولاسيما مالقة وألمرية . من أغنى الثغور الإسبانية وأزخرها بالحركة التجارية . أما غرناطة عاصمة المملكة ، فقد غدت عقب سقوط القواعد الأندلسية الأخرى في يد النصارى ، أعظم القواعد الأندلسية الباقية ، وأغناها وأكثرها ازدهاماً بالسكان . وكانت بحمرائها المطلّة عليها من ربوتها المنيع ، وشوارعها الزاخرة ، وميادينها الفسيحة ، وقصورها البديعة ، وحدائقها ومنتزهاتها الياقة ، من أجمل مدن العصور الوسطى . وكانت غاية في الحصانة ، سواء بموقعها الطبيعي ، أو بأسوارها الكثيفة ، التي يتخللها ألف وثلاثمائة برجاً منيعاً ، وكانت تضم في أيامها الزاهرة من السكان مع أرباضها وضواحيها زهاء نصف مليون من الأنفس ، وذلك بما تقاطر عليها من سيل المهاجرين من المدن الأندلسية الأخرى . وكان بوسع العاصمة وقت الحرب ، أن تعي وحدها زهاء خمسين ألف مقاتل ، وكانت أبهاء قصر الحمراء تتسع وحدها لأربعين ألف رجل (١) .

وقد رأينا كيف نشأت مملكة غرناطة ، على يد رجل ذى عبقرية هادئة ولكن واسعة الأفق ، هو محمد بن الأحمر ، زعيم بني نصر ، وكيف استمر أعقباه يتوارثون عرش غرناطة أكثر من قرنين ، حتى سقطت في أيدي النصارى . وتسمى دولتهم بالدولة النصرية أو دولة بني الأحمر ، وقد تسمى زعيمهم ومؤسس دولتهم بأمير المسلمين ، وهو اللقب الذى كان يتسم به ملوك العدو في تلك العصور ، وغلب هذا اللقب على سلاطين غرناطة حتى نهاية دولتهم .

وكان ملوك بني نصر ، كسائر ملوك العصور الوسطى ، يدينون بمبدأ الحكم المطلق ، ولا يرون له بديلاً . على أنه في وقت الخطر العام والأحداث الخطيرة ، كان السلطان يستعين برأى الزعماء والقادة ذوى العصية والتوجيه . وكان السلطان يستأثر بكل سلطة حقيقية ، ويباشر مهام الأمور بنفسه ، إلا في فترات قليلة يستأثر بالسلطة فيها وزير قوى ، كما حدث في عهد السلطان ابن عبد الله محمد الملقب بالخلوع (٧٠١ - ٧٠٨ هـ) ، حيث استأثر بالحكم وزيره أبو عبد الله ابن الحكيم

اللمخمي . وعهد السلطان أبي عبد الله محمد بن إسماعيل (٧٢٥ - ٧٣٣ هـ) ، حيث استبد بالحكم دونه وزيره ابن المحروق ، وعهد أخيه السلطان أبي الحجاج يوسف (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) حيث استبد بالحكم الحاجب أبو النعيم رضوان ، ثم في عهد السلطان الغني بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) حيث استبد بالحكم حيناً وزيره ابن الخطيب . وكان نظام الطغيان الذي يفرضه الوزير المتغلب ، ينتهي في كل مرة بانقلاب عنيف ، ويستعيد السلطان سلطته الحقيقية ، في غمرة من الحوادث الدموية .

وكان هذا النظام المطلق الذي يسود حكومة غرناطة ، يؤدي إلى نشوب الثورة في أحيان كثيرة ، ويدكي من عواملها في الوقت نفسه ، تطاحن الأحزاب في البلاط والجيش . وكان هذا النظام يتطور أحياناً في ظل الملوك الضعاف إلى نوع من الإقطاع ، ويستأثر بعض الرعماء الأقوياء والأسر ذات العصبية ، بحكم المدن والثغور . وكان الشعب الغرناطي سريع التقلب والغضب ، يأخذ في الثورات والإنقلابات السياسية بأعظم قسط . وكانت مناصب الحكم الرئيسية في حكومة غرناطة ، تنحصر في الوزارة وقيادة الجيوش والقضاء . فأما الوزارة فكانت تسند غالباً إلى أحد الأعلام من رجال القلم ، وبين وزراء الدولة النصرية ثبت حافل من هؤلاء ، مثل ابن الحكيم اللمخمي ، وابن الجياب ، وابن الخطيب ، وتلميذه ابن زمرك ، وكلهم من أقطاب الكتابة والشعر . وكان الوزير - وفي فترات نادرة يسمى الحاجب - يستعين بطائفة من « الكتاب » لتنفيذ مختلف المهام . وللسلطان كاتب سر أو أمين خاص . وكثيراً ما يرتقى « الكاتب » إلى منصب الوزير ، ويعتبر الوزير رأس الدولة التنفيذية الحقيقية ، وهو الذي يشرف سواء بطريقة مباشرة أو بتوجيه سلطانه القوي ، على تصريف شئون المملكة ، وتوجيه سياستها الداخلية والخارجية .

وأما قيادة الجيوش ، فكانت أهم المناصب في دولة تواجه إغارة العدو على أراضيها باستمرار . وكان يختص بهذا المنصب الخطير ، منذ أواخر القرن السابع الهجري أسرة بني العلاء ، أحد بطون بني مرين ملوك العدو ، وكان توليهم لقيادة الجيوش الأندلسية ، نتيجة للتحالف التي توثقت أواصره بين بني الأحمر وبني مرين عصرًا (١) . وقد اشتهر أولئك القواد المغاربة بالبراعة والشجاعة ، وكانت لهم في ميادين

(١) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٥٢٨ .

الحرب والجهاد مواقف مشهودة . وكان المتولى لمنصب القيادة العامة يلقب بشيخ الغزاة ، وكانت الجنود المغربية عنصراً بارزاً في الجيش الأندلسي ، وقد تحافت بالأندلس منذ أيام المرابطين والموحدين جموع كثيرة من البربر (١) ، وكانوا لبداتهم وخشونتهم يوثرون الحياة العسكرية على الحياة المدنية . وقد زاد عددهم بالأخص أيام عبور الجيوش المرينية إلى الأندلس . وبالرغم مما أداه القواد والجنود المغاربة لمملكة غرناطة ، من الخدمات الجليلة في ميدان الحرب ، فقد كانوا أحياناً خطراً على النظام والعرش ، وكان لبني العلاء شيوخ الغزاة أطماع سياسية ، ظهرت خطورتها في بعض الثورات والإنقلابات العنيفة .

وقد كانت قوة غرناطة العسكرية ، في الواقع عماد حياتها ، التي استطالت أكثر من قرنين ، وذلك بالرغم من القوى الجارية المعادية ، التي لبثت باستمرار ترهقها ، وتستنفد مواردها . وكان الجيش الأندلسي ، فضلاً عما كان يزخر به من العناصر المجاهدة الباسلة ، من البربر وجند البشرات وغيرها ، من المناطق الجبلية ، يتمتع بكثير من المزايا البارزة ، فكان يضم فرقاً من أبرع الرماة ، وكان بالأخص يتفوق بفرق الفرسان ، التي اشتهرت في تلك العصور ببراعتها التي لا تبارى . وإلى جانب ذلك كانت الطبيعة تحبو غرناطة برعايتها ، وتساعدها التلال المرتفعة والمنماوز الوعرة ، التي تتخللها في كل ناحية ، على شدة المقاومة ، واتقان حرب العصابات التي ترهق الجيوش المنظمة . وكانت القواعد الأندلسية ، من جراء الحروب المتواصلة ، قد حولت جميعها إلى قلاع منيعة ، وشيدت الحصون القوية في كل مكان يصلح للمقاومة . وأهم من ذلك كله أن مسلمي الأندلس ، كانوا قد وقفوا فيما يبدو على سر البارود (٢) ، واستعملوه منذ منتصف القرن الرابع عشر ، حسبما فصلنا في موضع سابق (٣) . وكان لذلك كله أثر واضح في تمكين مملكة غرناطة الصغيرة ، من الوقوف في وجه عدوها القوي بنجاح ، طيلة هذه العصور .

وكان للقوى البحرية أيضاً شأنها ، في كفاح الأندلس من أجل حياتها .

(١) راجع ص ٤٨ من هذا الكتاب .

(٢) Prescott; Ferdinand and Isabella p. 193-194

(٣) راجع ص ١٦٠ من هذا الكتاب .

وكانت مملكة غرناطة تسيطر من ثغورها الشهيرة: جبل طارق والجزيرة وطريف ومالقة ، على مدخل البحر الأبيض المتوسط ، وكانت أهم مهام الأسطول ، بعد حماية الشواطئ والثغور ، تأمين الصلة المباشرة بين مملكة غرناطة ، وبين اخوانها المسلمين فيما وراء البحر في المغرب الأقصى ، وقد استطاعت الأساطيل الأندلسية والمغربية ، أن تحتفظ بسيادتها في هذه المياه عصوراً ، وكان انهيار قوة غرناطة البحرية ، وسقوط ثغورها في يد النصارى ، نذير السقوط النهائي .

وكان أرفع المناصب القضائية ، منصب قاضى الجماعة ، وهو ما يقابل فى الأندلس منصب قاضى القضاة فى مصر الإسلامية . وقاضى الجماعة هو أيضاً قاضى الحضرة وقاضى غرناطة ، والغالب أن يجمع فى نفس الوقت بين منصبه ومنصب خطيب الحمراء ، أو خطيب الجامع الأعظم (١) ، وهو أيضاً من المناصب الدينية الرفيعة . وكان القضاء يجرى فى مملكة غرناطة ، على مذهب الإمام مالك ، وهو مذهب الأندلس المفضل منذ القرن الثانى المجرى . وكان يجرى تعيين قاضى الجماعة « بظهير » أى مرسوم ملكى . وكانت كلمة « الظهير » هى الغالبة فى مملكة غرناطة للتعبير عن " المراسيم والقوانين السلطانية " وهى مازالت تستعمل حتى اليوم فى المغرب الأقصى ، حيث يوصف المرسوم بأنه « ظهير ملكى » . وكان لكل مدينة قاضياً وخطيباً ، ولا يشغل مناصب القضاء سوى أكابر العلماء والفقهاء .

ويتبع القضاء وظيفة الحسبة وهى أيضاً وظيفة دينية ، تقوم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويختص صاحبها بمطاردة المنكرات ، والتعزير والتأديب على قدرها ، والعمل على احترام الأحكام الشرعية ، وقمع الغش والاختلاس فى المعاملات ، وأمور المعيشة والمكايل والموازين ، وله أيضاً أن يحمل الناس على أداء المصالح العامة ، مثل تمهيد الطرقات والإضاءة بالليل وغير ذلك .

وكان يعهد بحفظ النظام والأمن إلى متولى الشرطة ، وكان يسمى أيام الدولة الأموية صاحب الشرطة ، ويعتبر منصبه من أعظم المناصب القضائية والإدارية ، وكان ينتخب عادة من كبار القواد أو الخاصة ، ويتمتع بسلطات قضائية وإدارية واسعة . ثم سمي بعد ذلك بصاحب المدينة وصاحب الليل . وكان يعتبر فى منصبه

(١) راجع نفج الطيب ج ٣ ص ٧٠ و ٧٤ و ١٩٧ .

تابعاً للوزارة ، مسئولاً أمامها ، وكان جل اختصاصه أن يتولى حفظ النظام والأمن ، ومطاردة المجرمين وأهل الفساد . وتنفيذ العقوبات الجنائية ، من الحد والتعزير وغيرهما فيمن وجب عليه ذلك ، وهو الذى يتولى الإتهام والتحقيق وتوقيع العقوبة ، دون تدخل القاضى ، ويعاونه فى مهمته جماعات من الحراس ، تجوب أنحاء المدينة ليلاً ، وتشرف على حراسة الطرق والأمكنة وتعتقب الجناة (١) .

وقد أشرنا فيما تقدم ، إلى ما كانت تتمتع به مملكة غرناطة ، بالرغم من انكماش رقعتها من الموارد والثروات الطبيعية الوفيرة . وكانت الزراعة منذ أيام الدولة الأندلسية الكبرى ، من أعظم موارد الأندلس ، وكانت وديان اسبانيا الحصبة ، التى تتخللها عدة من الأنهار العظيمة ، وترتبطها البديعة ، وأقليمها المتقلب بين الحرارة والبرودة ، تفسح أعظم مجال لشعب عامل ذكى . وكان عرب الأندلس من أنبغ الشعوب ، فى فلاحه الأرض وتربية الماشية وغرس الحدائق ، وتنظيم طرق الري ، ومعرفة أحوال الجو ، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات ، وكانت مزارعهم وحدائقهم مضرب الأمثال فى الجودة والنماء ؛ وقد نقل العرب من المشرق وشمال إفريقيا إلى اسبانيا كثيراً من الأشجار والمحاصيل ، كالقطن والأرز وقصب السكر والزعفران والنخيل ، وكانت غياض القمح وغابات الزيتون ، وحدائق البرتقال والتوت والكروم ، من أبدع ما ترى العين فى وديان الأندلس ومروجها الخضرة . وأما نبوغ عرب الأندلس فى تنظيم وسائل الري والصرف ، واستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية ، فما زالت تشهد به آثارهم الباقية إلى الآن ، فى وديان الأندلس ، من القنوات والحدادول الدارسة . وقد أقيمت أيام الدولة الأموية عدة من القنوات الشهيرة ، وحفرت ترع ومصارف لاحصر لها ، فى مختلف أنحاء اسبانيا ، وكلها مما يشهد لصانعيها بالمهارة والتفوق . وكان لأهل الأندلس شهرة خاصة فى غرس الحدائق وتنسيقها ، وقد كانت حدائق الرصافة والزهراء والزاهرة ، بدائع تشهد لهم بوفرة البراعة وحسن الذوق ، وكانت روعتها مستقى خصباً لخيال الشعراء والكتاب . وفى مكتبة الاسكوريال مؤلف فى الزراعة لأبى زكريا الإشبلى ، يدل على مبلغ ما وصل إليه عرب الأندلس من

(١) ابن خلدون : المقدمة ج ١ من ٢٠٩ و ٢١٠ ؛ ونفح الطيب ج ١ من ١٠١ .

معرفة بخواص التربة ، واستخراج كنوز الأرض ، وطرق الري والصرف ، وأحوال الطقس وغيرها .

وكانت مملكة غرناطة بالرغم مما يتخللها من الجبال والهضاب الوعرة ، تضم كثيراً من الوديان والبساتين الخصبة ، وكانت ضفاف شتيل سلسلة من البساتين الخضراء ، تتخللها مئات الترع والقنوات ، وكان المريج الشهير ، الواقع غربى غرناطة La Vega ، وهو الذى لبث أكثر من قرنين مسرحاً للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى ، بحقوله وحداثته النظرة ، كأنه قطعة من الجنان ، أودعها المسلمون كل براعتهم . وكانت المحاصيل المختلفة تتعاقب طول العام ، وتنتج البلاد كل ما يكفيها من الأطعمة والمؤن . وكانت مزارع الكروم الأندلسية الشهيرة ، تغطى مساحات واسعة فى غرناطة ومالقة وشرش .

وكذلك ضرب عرب الأندلس فى الصناعة بأوفر سهم . وكانت اسبانيا المسلمة أيام قوتها ، أعظم الأمم الصناعية فى أوروبا ، وكانت ثرواتها المعدنية ، من الحديد والرصاص والزئبق والذهب والفضة وغيرها ، تمدّها بأسباب التفوق فى هذا الميدان . وقد اشتهرت الأندلس بنوع خاص ، بصناعة الأسلحة الجيدة ، تنتجها بوفرة وتصدرها إلى أهم أوروبا وإفريقية . وكذا اشتهرت بصناعة الصوف الحرير ، والأقمشة الملونة الممتازة ، وصناعة الجلود التى برع فيها أهل قرطبة بنوع خاص . وقد استطاعت مملكة غرناطة ، أن تستبقى كثيراً من الصناعات الأندلسية القديمة ، فاستمرت غرناطة مركزاً عظيماً لصناعة الأسلحة والذخائر ، وكان تفوقها فى هذه الصناعة من أسباب قوتها ، وتمكّنها طويلاً من مدافعة أعدائها . وكذلك استمرت صناعة الحرير على تقدمها وازدهارها ، ولاسيما فى مالقة والمريّة ، وكانت يومئذ من أعظم موارد الأندلس . وقد نقلت المدن الإيطالية ، التى اشتهرت بصناعة الحرير فى العصور الوسطى ، عن الأندلسيين معظم فنونهم وطرائقهم فى هذه الصناعة المربحة ، وكانت مدينة فلورنس تستورد كميات كبيرة من الحرير الخام من غرناطة ، حتى أواخر القرن الخامس عشر (١) . ولبثت صناعة الخزف الجميل ، مزدهرة حتى العصر الأخير . وكذلك لبثت صناعة الجلود الفاخرة الملونة ، حتى نفى الموريسكيين ، وقد نقلت

بعد نفهم على يدهم إلى أوربا . واشتهرت الأندلس أيضاً بصناعة الورق . وقد اكتشف الغزيرى ، عدة مخطوطات بمكتبة الإسكوريال ، ترجع إلى القرن الحادى عشر ، كتبت على ورق مصنوع من القطن ، وأخرى ترجع إلى القرن الثانى عشر ، كتبت على ورق مصنوع من الكتان ، وكان لهذه الصناعة مكانتها فى مملكة غرناطة . أما التجارة فقد بلغت شأواً بعيداً فى الأندلس ، وذلك لحسن موقعها وكثرة ثغورها ، وتوسطها بين أوربا وإفريقية ، وانتظام صلاتها البحرية ، مع سائر ثغور البحر الأبيض المتوسط . وكانت علائقها التجارية تمتد حتى قسطنطينية ، وثغور الشام والإسكندرية ، وترسو سفنها التجارية فى الثغور الإيطالية ، ولا سيما جنوة ورومة والبندقية . وكانت ثغورها تزخر بمختلف الواردات ، من بلاد أوربا وإفريقية والمشرق . وازدهرت الحركة التجارية فى غرناطة ولا سيما التجارة الخارجية ، وكان للجنوبيين وغيرهم ، من الأمم ذات الصلات الإقتصادية الوثيقة بالأندلس ، منشآت تجارية فى غرناطة . وعقدت غرناطة مع جمهورية جنوة ومع مملكة أراجون معاهدات تجارية . وكانت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر من أعظم المراكز التجارية فى جنوب أوربا ، حتى لقد وصفها بعض المؤرخين المعاصرين بأنها « مدينة جميع الأمم » . ويقول مؤرخ اسباني « إن شهرة سكانها فى الأمانة والثقة » ، بلغت إلى حد أن كلمتهم المجردة ، كان يعتمد عليها ، أكثر مما يعتمد على عقد مكتوب . بيننا « (١) .

وكان الرخاء يسود مملكة غرناطة طوال أيامها ، وقلما كانت تصدع منه الثورات الطارئة أو الحروب المتواصلة . وكانت موارد الخزينة أو الموارد السلطانية كثيرة متنوعة تتكون من ضريبة الأراضى المنزرعة وتبلغ فى المتوسط نحو سبع قيمة المحصول ، والأموال المرسومة على السفن الواردة والصادرة ، ودخل دار السكة ، ودخل بيت المال ، من زكاة وصدقات وميراث من لا وراث له ، وأخماس الغنائم التى كانت تحصل من العدو ، ومختلف الضرائب التجارية والمهنية . وكانت للعرش فوق ذلك أملاك ومزارع عظيمة فى فحصى غرناطة (المرج) . وكانت الضرائب فى مملكة غرناطة على وجه العموم ، أكثر مما كانت عليه فى الدول الإسلامية السابقة

وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى استمرار الصراع بلا انقطاع بينها وبين النصارى .
وقدر دخل مملكة غرناطة في تلك العصور ، بنحو مليون ومائتي ألف دوقية (١) ،
وهي قيمة لا يستهان بها في ذلك العصر ؛ وكان يتولى الإشراف على شئون الدخل
والخرج وأعمال الجباية موظف كبير يسمى « صاحب الأشغال » ، وكانت ثمة طوائف
كبيرة من الشعب الغرناطى تتمتع بالثراء ، ويقتنى الكثيرون الحلى والجواهر النفيسة
ولاسيما أبناء الطبقات العليا . وكانت غرناطة تتمتع فوق ذلك بنقد سليم ثابت (٢) ،
يخرجه المضرب الملكى الذى اشتهر بأمانته ودقته ، ولا يتطرق إليه شىء من ذلك الزغل
الذى كان في أحيان كثيرة يؤدى إلى الانهيار المالى .

— ٤ —

وقد أشرنا في بداية هذا الكتاب ، إلى تكوين الأمة الأندلسية في مراحلها
الأخيرة في ظل مملكة غرناطة ، وإلى خصائصها العنصرية . والحقيقة أن المجتمع
الأندلسى بمختلف عناصره الأصلية والدخيلة ، كان قد استحال بمضى الزمن ،
وتعاقب الحوادث والدول والمؤثرات الإجتماعية والإقليمية ، إلى أمة عربية إسلامية
ذات طابع مستقل ومميزات خاصة ، تدعمها طائفة من الحلال البديعة ، وتصلقها
حضارة رفيعة زاهرة . ثم قامت مملكة غرناطة التى اجتمعت فيها بقية الأمة الأندلسية
لتعرض لنا خلال حياتها الطويلة ، المراحل الأخيرة لعظمة الأمة الأندلسية وحضارتها .
وقد وصف لنا ابن الخطيب ، أحوال المجتمع الأندلسى ، وخواصه الجنسية
والعقلية والاجتماعية في هذا العصر ، الذى مالت فيه شمس الأندلس إلى الأفول . فذكر
لنا أن الشعب الأندلسى ، كان يتمتع بصفات أخلاقية طيبة ، وأن صورهم جميلة
وأنوفهم معتدلة ، وألوانهم بيضاء ، وشعورهم سوداء ، وقودودهم متوسطة ، وألسنتهم
عربية فصيحة ، تغلب عليها الإمالة ، وأنسابهم عربية ، وفيهم كثير من البربر
والمهاجرين .

وكان نساؤهم يتميزن بالجمال والسحر ، واعتدال السمن ، ونعومة الجسم ،
ورشاقة الحركة ، ونبل الكلام ، وحسن المجاورة ، ولكن ينذر الطول فيهن . وقد بلغن

(١) الدوقية هي عملة ذهبية كانت ذائعة في أوروبا في العصور الوسطى وتبلغ قيمتها نحو نصف جنيه من عملتنا الحديثة .

(٢) ابن الخطيب في اللحة البدرية ص ٢٩ .

فى التفتن فى الزينة والملبس شأوا بعيداً ، يسرفن فى الأصباغ والعطور ، والتزين بنفيس الحلى .

وكان اللباس الغالب بين الأندلسيين شتاء ، الملف (١) المصبوغ على اختلاف أصنافه وألوانه ؛ ويرتدون فى الصيف ، الكتان والحرير والقطن والأردية الإفريقية ، والمقاطع التونسية ، ولما أزر المشفوعة « فتبصرهم فى المساجد أيام الجمع ، كأنهم الأزهار المفتحة ، فى البطاح الكريمة ، تحت الأهوية المعتدلة » .

ومما يجدر ذكره ، أن العمامة كانت يومئذ قد اختفت تقريباً كلباس رأس بين الشعب الأندلسى ، ولم يكن يلبسها سوى العلماء والقضاة . وقد حلت القلانص منذ عهد بعيد مكان العمام . وكان أهل شرق الأندلس أسبق من غيرهم فى نبذ العمامة ، وذاعت القلانص بينهم منذ أوائل القرن السابع ، حتى كان أمراؤهم بل وشيوخهم وقضاةم يلبسون القلانص ، وكان كثير من أمراء المسلمين مثل ابن مردنیش وغيره يرتدون الثياب القشتالية (٢) . ولم يلبس ملوك بنى الأحمر العمامة ، بل فضلوا القلانصوة (كاب) واتخذوها لباساً حتى آخر دولتهم . وفى متحف جنة العريف بغرناطة ، صورة يقال إنها لأبى عبد الله آخر ملوك الأندلس ، وهى تصوره بقلنسوة عالية . وأما القضاة فقد احتفظوا بالعمامة كلباس رسمى . وتوجد بين الصور المنقوشة على جدران الحمراء صورة تمثل مجلس القضاة وهم بالعمائم والبرنس .

وكان الأمراء والأكابر ، وفريق كبير من أبناء الطبقات الميسورة ، يؤثرون ارتداء الثياب الإفريقية ، اقتداءً بجيرانهم النصارى ، ولا سيما فى عصور الأندلس الأخيرة . وأما ثياب الجندى الأندلسى فقد كانت فى العصور المتأخرة مشابهة لثياب الجند النصارى ، وكذلك عدتهم وسلاحهم ونظامهم فى الصفوف ، ثم عدلوا فى عصر ابن الخطيب عن هذا الزى ، إلى الجواشن المختصرة والبيضات المذهبة ، والسروج العربية . وكانت الجنود البربرية من جانبها ، تحافظ على زيها المغربى .

وكان أهل الأندلس مضرب الأمثال فى النظافة ، يبالغون فى العناية بنظافة أبدانهم وثيابهم ، ويكثرّون من الاستحمام . وقد كانت هذه العادات فيما بعد ،

(١) نسج من الصوف .

(٢) راجع ص ١٥٧ و١٥٨ من هذا الكتاب .

حينما أكره المسلمون على التنصير ، من الشبه التي تثيرها ضدهم محاكم التحقيق ، للتدليل على تشبههم بالإسلام ، وارتدادهم عن النصرانية .

وكان المجتمع الغرناطي يعيش في رخاء وسعة ، تكثر لديه الأوقات في الشتاء والصيف ، ولا سيما الفاكهة من العنب والتين والزبيب والتفاح والقسطل والجوز واللوز وغيرها ، ويدخرها الناس يابسة على كر الفصول ؛ ومتى حل الصيف ، هرع الناس إلى الفحوص (المروج) أغنى الضواحي ، للتمتع بجمال البساتن النضرة ، ونسيمها العليل (١) .

وكان احتفالهم بالأعياد أنيقاً ، ولكن في حدود الاعتدال والاقتصاد . وكان الشعب الغرناطي يعشق مباهج الحياة والحفلات العامة ، وكانت الحياة لديه كأنها سلسلة من الأعياد المتواصلة . وكان الغناء ذائعاً ، ويكثر في المتنديات والمقاهي العامة ، حيث يجتمع الشباب بكثرة ؛ ولم تنس غرناطة مرحها حتى في أيام محنتها ، ولم تغلبها الكآبة إلا حينما أصبح العدو على الأبواب يهدد حياتها (٢) .

وقد استمرت الفروسة الأندلسية في مملكة غرناطة على ازدهارها ، ولبثت عصوراً تجذب الأنظار باكتمالها وروعها ورقة شمائلها . وفضلاً عن كونها كانت عماد الدفاع القومي ، حسبما أشرنا من قبل ، فقد كانت مظاهرها وحفلاتها من أمتع المباهج العامة ، في ميدان كان التسامح المؤثر يسود فيه علائق المسلمين والنصارى ، بالرغم مما كان يدور بين الفريقين من صراع مستمر . وقد اشتهر ملوك غرناطة ، فضلاً عن الجود ، بميلهم نحو الحرية والتسامح ، فكان الأمراء المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ، وكانوا يتلاقون أيام السلم وفي المفاوضات أنداداً كراماً ؛ ومن أشهر مظاهر هذا التواصل ما حدث في سنة ١٤٦٣ ، حيث سار هنري الرابع ملك قشتالة إلى أراضي غرناطة ، وزار ملكها ابن إسماعيل ، والتقى الملكان في مكان بقرب الفحص (لاثيجا) ضربت فيه خيمة ملكية أمام أبواب العاصمة ، ولما انتهت الزيارة وتبادل الفريقان الهدايا ، رافقت ملك النصارى كوكبة من الفرسان المسلمين ، وشيعته حتى الحدود . وكذلك كان الفرسان المسلمون والنصارى ، يتبادلون الزيارات ،

(١) راجع ابن الخطيب في اللعة البدرية من ٢٧ — ٢٩ .

(٢) اللعة البدرية من ٢٨ ؛ وكذلك في Prescott : Ferd. & Isabella, p. 192

وكثيراً ما كان الفرسان النصارى يقصدون إلى غرناطة ، لقضاء مصالحهم وتسوية منازعاتهم ، وكذا كان كثير من الأسر القشتالية النبيلة ، يلجأ إلى حماية ملك المسلمين كلما شعرت بالإضطهاد والحيـف ، وكان في مقدمة هؤلاء آل ثيلا وآل كاسترو ؛ وكانت مباريات الفروسية وحفلاتها تتوالى في غرناطة ، وفيها يبدى الفرسان المسلمون ضروباً رائعة من البراعة والرشاقة . وكان من أهم مميزات هذه الحفلات الشهيرة اختلاط الجنسين ، فكان نساء غرناطة ، البارعات في الحسن والإناقة ، يشهدن هذه الحفلات وغيرها من الحفلات العامة سافرات ، ويسبغن بوجودهن عليها روعة وسحراً ، وكن يتمتعن في الواقع بقسط وافر من الحرية الإجتماعية (١) .

الفصل الثاني

الحركة الفكرية في مراحلها الأولى

الحركة الفكرية الأندلسية في أوائل القرن السابع • الشعر والأدب • ابن حريق • ابن مرج الكحل • ابن الجيان المرسى • ابن الأبار القضاعي • أبو البقاء الرندي • أقطاب اللغة • الفقه وعلوم الدين • المؤرخون • العلوم • بنو زهر • ابن البيطار المالقي • بنو الأحمر حماة العلوم والآداب • محمد الفقيه وولده المخلوع • السلطان أبو الحجاج • الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل • الوزراء الكتاب والشعراء • ازدهار الشعر والأدب • ركود الحركة العلمية • ابن الحكيم الرندي • حياته وشعره • ابن خميس التلمساني • أبو الجيان القرناطي • الرئيس ابن الجياب • ابن جابر الضرير • أقطاب اللغة • علماء الفقه والدين • التصوف • المؤرخون والرحل • العلوم •

أتينا في الفصل السابق ، على لمحة من سير الحركة الفكرية ، في ظل الدولة الإسلامية بالأندلس ، حتى بداية القرن السابع الهجري ، أعني إلى ما قبل قيام مملكة غرناطة بقليل . ونريد الآن أن نتحدث عن سير العلوم والآداب والفنون ، في ظل مملكة غرناطة ذاتها . وسنحاول أن نتوسع في هذا الحديث قدر الإستطاعة ، وإن كانت المصادر العربية ، صنيعة في ذلك حسبما أشرنا ، أولا لهلاك معظم الآثار والوثائق الأندلسية المتعلقة بهذه المرحلة من تاريخ الأندلس ، وثانياً لأن كثيراً من المفكرين والكتاب المتأخرين ، الذين رأوا الوطن الأندلسي مشرفاً على السقوط في يد العدو ، بادروا بالهجرة إلى المغرب والبلاد الإسلامية الأخرى .

بيد أنه يجدر بنا قبل ذلك ، أن نغني بالفترة العصبية المضطربة التي جازتها الأندلس ، في أواخر أيام الموحدين قبيل قيام مملكة غرناطة . وقد شهدت الأندلس في هذه الفترة ، أعني في أوائل القرن السابع الهجري ، سلسلة من الأحداث الجسام . ذلك أن سلطان الموحدين أخذ ينهار سراعاً ، واضطربت ثورة ابن هود في الولايات الشرقية ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى ، تسقط تباعاً في يد النصارى . واستطاع ابن الأحمر في الوقت نفسه ، أن ينشئ مملكة غرناطة في جنوبي الأندلس . وكان من جراء الفوضى السياسية التي غمرت الأندلس يومئذ ، أن تصدعت الحركة الأدبية

وشنت شملها . وفقدت وسيلة الإستقرار والتجمع ، وشغل الأدباء والمفكرون يومئذ بالحنة وآثارها . وغادر الأندلس فى تلك الفترة ، كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير ، وآثروا العمل فى جو أكثر استقراراً وطمأنينة ، مثل الشيخ محى العربى المرسى قطب التصوف الشهير ، وابن البيطار المالى ، وابن الأبار القضاعى ، وابن حمدون الحميرى النحوى ، وابن سعيد الأندلسى ، وكثيرون غيرهم ، ممن رحلوا إلى المشرق أو عبروا البحر إلى المغرب .

وهكذا طلعت أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) على الأندلس ، بأحداثها وفتنها المتوالية ، والحركة الفكرية فى ربوعها حائرة غير مستقرة ، يتبدى ضوؤها باهتاً ، فى ظل دول وإمارات تتصدع أركانها تبعاً . ومع ذلك فقد ظل تراث الأندلس الفكرى فى هذه الفترة متواصلاً ، يمتاز على اضطرابه بكثير من نواحي القوة والنضج ، التى امتاز بها فى ظل دولة الموحدين ، وقت أن كانت فى عنفوانها .

وسوف نستعرض فيما يلى أعلام التفكير والأدب فى تلك الفترة المضطربة ، التى مهدت حوادثها لقيام مملكة غرناطة ، فهى ليست فى الواقع سوى حلقة اتصال ، بين العصر الذى اختتمته الأندلس الكبرى ، وبين العصر الذى بدأت فيه حياتها الجديدة .

الشعر والأدب

وكانت الحركة الأدبية يومئذ ماتزال فى عنفوانها . وكانت دولة النثر والنظم تحتل مكانتها الرفيعة ، بل لقد بعثت الأحداث والحن ، التى توالى على الأندلس يومئذ ، إلى الشعر بكثير من أسباب الإنفعال والقوة . فامتألت الأندلس يومئذ بالشعر المؤسسى ، والمرأى القوية المؤثرة ، التى نقل المقرئ إلينا كثيراً منها ، فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض .

وكان من أعلام الشعر فى تلك الفترة ، على بن محمد بن أحمد بن حريق الشاعر البلبسى المتوفى فى سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٧م) ، كان شاعراً مجيداً كثير النظم ، ذاع شعره فى الأندلس ، وكتب فوق ذلك عدة كتب فى الأدب (١) .

(١) ابن الأبار فى تكملة الصلة (رقم ١٨٩٥) ، وصلة الصلة لأبى جعفر الزبير ص ١٢٩ .

ومنهم ابن مرج الكحل ، وهو أبو عبد الله محمد بن ادريس بن علي ، أصله من جزيرة شقر ، وكان من أعظم شعراء عصره . وبرع بنوع خاص في الغزل والشعر الوصفي المبتكر ، وعاش حيناً في غرناطة ، وذاع صيته في سائر نواحي الأندلس ، وتوفي سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) ومن شعر يصف عشة ، بنهر الفنداق الذي يمر بلوشة :

عرج بمنعرج الكثيب الأعفر	بين الفرات وبين شط الكوثر
ولتغبتها قهوة ذهبية	من راحتي أحوى المرافف أحور
والروض بين مفضض ومذهب	والزهر بين مدرهم ومدنر
والنهر مرقوم الأباطح والربا	بمصنل من زهره ومعصفر
وكأنه وكأن خضرة شطه	سيف يسيل على بساط أخضر
وكان ذاك الحساب فرنده	مهما طفا في صفحه كالجوهر (١)

ومنهم عزيز بن عبد الملك القيسي ، كان من أهل مرسية واشترك في حوادثها السياسية ، واستطاع أن يظفر بأمارتها لمدي قصير ، وتوفي سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) قتيلاً ، في معركة نشبت بينه وبين خصومه ، وكان شاعر مجيداً ، ومن قوله عندما حلت به المحنة :

نصحت فلم أفلح وخانوا فأفلحوا فأعقبني نصحي بدار هوان (٢)

ومنهم علي بن ابراهيم بن علي المعروف بابن الفخار ، أصله من شريش وكان من أعلام الكتابة والنظم وتولى القضاء حيناً ، وتوفي سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) (٣) . ومنهم ابراهيم بن سهل الإشبيلي . وقد كان يهودياً ثم أسلم ، وبرع في الشعر ولا سيما في التوشيح ، ومن أبدع شعره قصيدة طويلة نظمها في مدح النبي . وقد توفي غريقاً في النهر ، وهو شاب في عنفوانه ، وذلك سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) . ومن شعره قوله :

مضى الوصل إلا منية تبعث الأسى أداري بها همي إذا الليل عسعس

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ .

(٢) راجع صلاة الصلاة ص ١٦٥ ، وابن الأبار في التكملة رقم ١٩٥٢ .

(٣) راجع صلاة الصلاة ص ١٣٥ ، والتكملة رقم ١٩٠٧ .

أتانى حديث الوصل زوراً على النوى أعد ذلك الزور اللذيد المؤنسا
ويا أيها الشوق الذى جاء زائراً أصبت الأمانى خذ قلوباً وأنفسا
ومن موشحاته :

ليل الهوى يقظان والحب ترب السهر
والصبر لى خوان والنوم من عيني يرى (١)

ومنهم أبو عبد الله محمد بن الجيان المرسى ، صديق ابن هود وكاتبه . وكان عالماً بالحديث والرواية ، بارعاً فى النثر والنظم . تولى الوزارة حيناً لابن هود ، وهو الذى كتب عن لسانه وصيته الشهيرة لأخيه . ولما استولى النصارى على مرسية سنة ٦٤١هـ ، غادرها إلى أريولة ، ثم نرح إلى المغرب ، واستقر بمدينة بجاية ، وتوفى هنالك سنة ٦٥٠هـ (١٢٥٢م) . وكان ابن الجيان صغير القد ، حتى ليخاله الناظر إليه طفلاً ، ومن شعره قصيدته الدالية المشهورة التى مطلعها :

ياحادى الركب قف بالله ياحادى وارحم صباية ذى نأى وإبعاد (٢)
ومنهم الكاتب الشاعر ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى البلنسى ، المعروف بابن الأبار . ولد سنة ٥٩٥هـ وبرز فى الفقه واللغة ، وبرع فى النثر والنظم ، وتولى الكتابة للأمير أبى جميل زيان أمير بلنسية ، حفيد ابن مردنيش . ولما حاصر النصارى بلنسية سنة ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) واشتد الخطب بالمسلمين ، أرسل أميرها زيان كاتبه ابن الأبار ، سفيراً إلى أبى زكريا الحفصى أمير تونس ، يستغيث به ويستنصره على العدو ، وألقى ابن الأبار بهذه المناسبة بين يدى أبى زكريا قصيدته السينية الشهيرة ، يردد فيها صريخ الأندلس ، ويصف آلامها ومحنها ، وهذا مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت فلم يزل عز النصر منك ملتصا
وهى من غرر القصائد التى ذاعت بالأندلس أيام المحنة . ولما سقطت بلنسية بعد ذلك بقليل فى يد النصارى ، نرح ابن الأبار فى أهله إلى تونس ، وعاش

(١) راجع نفع الطيب ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٢) راجع نفع الطيب ج ٤ ص ٣٢ وما بعدها ، حيث ينقل وصية ابن هود لأخيه ؛ وص ٤٤٠

وما بعدها حيث يذكر طائفة من نظم ابن الجيان .

هنالك حيناً في كنف أميرها . ولكنه تغير عليه بعد ذلك ونكبه ، وتوفي قتيلاً بتحريض خصومه وذلك في سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) . ولابن الأبار كثير من الشعر الجيد . ومن قوله في الغزل

لم تدر ما خلدت عيناك في خلدي من الغرام ولا ما كابدت كبدي
أفديك من رائد رأم الدنو فلم يسطعه من فرق في القلب متقد
خاف العيون فوافاني على عجل معطلا جيده إلا من الجيد
ومنه يصف نهراً :

ونهر كما ذابت سبائك فضة حكى بمجانبه انعطاف الأرافم
إذا الشفق استولى عليه احمراره تراءى قضيباً مثل دامي الصوارم

وكتب ابن الأبار في الأدب والتاريخ . ومن آثاره تكملة كتاب الصلة لابن بشكوال ، ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها . وله أيضاً كتاب الحلة السيرة ، ترجم فيها لطائفة مختارة من أعيان الأندلس من أمراء وكتاب وشعراء ، وهو قيم جداً بالنسبة لتاريخ الطوائف وتاريخ عصره (١) . وله مؤلفات أخرى مثل كتاب تحفة القادم ، وإيماض البرق ، وكتاب الأعتاب ، أو أعتاب الكتاب وغيرها ، وهي آثار وصل معظمها إلينا (٢) .

ومنهم أبو البقاء صالح بن شريف الرندي . وكان أديباً شاعراً جزلاً . بيد أننا لانعرف كثيراً عن حياته ، ولا نعرف إلا أنه كان من أهل رندة كما يدل على ذلك لقبه . وقد عاش أبو البقاء حسب رأينا في بداية هذا الكتاب في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، وعاصر الفتنة التي تمخضت عن قيام مملكة غرناطة ، وسقوط معظم القواعد الأندلسية في يد النصارى . وقال في المحنة مرثيته الشهيرة التي أتينا على ذكرها في موضعها ، والتي خلدت ذكره إلى يومنا . وقد وهم المقرئ فاعتقد

(١) نشر كتاب التكملة في مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية ، ونشر كتاب الحلة السيرة بعناية المستشرق دوزي (ليدن سنة ١٨٥١) .

(٢) راجع في ترجمة ابن الأبار ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ؛ ونفع الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ — ٥٨٠ . هذا وتوجد نسخة خطه من كتاب تحفة القادم بمكتبة الاسكوريال ، ونسخة من كتاب أعتاب الكتاب بدار الكتب المصرية .

ونبغ في تلك الفترة بالذات ، أعظم متصوفة الأندلس الشيخ محي الدين أبو بكر الطائى المعروف بابن عربى ، وقد ولد بمرسية سنة ٥٦٠هـ ونزح إلى المشرق في شبابه ، وحج وطاف بمعظم قواعده ، وبقي به حتى توفى سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠م) ، وله ثبت حافل من المصنفات الجلية ، منها كتاب فصوص الحكم ، والفتوحات المكية ، والتدبيرات الإلهية ، وعشرات غيرها ، ذكرها صاحب فوات الوفيات ، وله شعر جيد (١) .

ونستطيع أن نذكر من المؤرخين في تلك الفترة ، إلى جانب ابن الأبار القضاعى ، الذى سبقت ترجمته ، على بن موسى بن سعيد الأندلسى ، المعروف بابن سعيد المغربى ، وهو أديب ورحالة وسليل أسرة من الأدباء والمؤرخين ، تعاقب منها قبله خمسة في مدى قرن ، على تصنيف مؤلف ضخيم في فضائل مدن الأندلس والمغرب والمشرق ، يضم كتاين كبيرين هما : كتاب « المشرق في حلى المشرق » « والمغرب في حلى المغرب » وأتمه على بن موسى آخر من نبغ من هذه الأسرة . وقد ولد في غرناطة سنة ٦١٠هـ وتوفى بدمشق سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٤م) ، وطاف بقواعد الأندلس والمغرب والمشرق ، ومؤلفه الكبير أثر أدبى وتاريخى وجغرافى جليل بارع الأسلوب (٢) . وله كتب أخرى ذكر منها صاحب فوات الوفيات كتاب المرقص والمطرب ، وملوك الشعر . وله شعر رقيق .

العلوم

وكان للعلوم أيضاً مجالها بالأندلس في أوائل القرن السابع الهجرى ، وربما كانت هذه آخر مرحلة ازدهر فيها العلم الأندلسى ، واستطاع أن يحتفظ بقبس من تقاليده القديمة الراسخة .

وكان ممن ظهر في تلك الحقبة ، أبو الفضل محمد بن عبد المنعم الجليانى ، الطبيب والشاعر الأديب ، أصله من جليانة من أعمال غرناطة ، ونبغ في الطب

(١) راجع في ترجمة ابن عربى ، فوات الوفيات ص ٢٤١ — ٢٤٣ .

(٢) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ١٣٧ . وقد انتهت إلينا من هذا الأثر الضخم نسخة مشوهة ناقصة ، وهي محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٢٧١٢ تاريخ ، وراجع فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٩ .

فى ظل الموحدين ، ثم رحل إلى المشرق ، وطاف بمصر والشام ، ونظم كثيراً فى الإلهيات والرياضيات وآداب النفس (١) .

ومنهم أبو بكر بن عبد الملك بن زهر الإشبيلي ، سليل أسرة بنى زهر الشهيرة ، التى نبغ منها فى الطب والكيمياء والصيدلة ، أبو العلا بن زهر ، ثم ولده عبد الملك الذى سبقت الإشارة إليه ، ثم ابنه أبو بكر هذا ، وقد برع كأبيه وجده فى الطب والكيمياء ، وكان من أعظم أطباء الأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى .

ومنهم أبو العباس بن الرومية الإشبيلي الطبيب ، وقد اشتهر بالأندلس فى أواسط القرن السابع الهجرى ، وله كتاب فى الأدوية المفردة على نمط الكتب التى ألفها بنو زهر فى هذا الموضوع (٢) .

وكان من أعظم علماء الأندلس فى هذا العصر ، ابن البيطار المالقي العالم النباتي والطبيب المشهور ؛ وهو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ، ولد بمالقة فى أواخر القرن السادس الهجرى ، ودرس على ابن العباس النباتي ، ثم غادر الأندلس فى شبابه ، وطاف بأنحاء المغرب ، وقدم إلى مصر أيام الملك الكامل ، فدخل طبيباً فى خدمته ، ثم خدم ابنه الملك الصالح من بعده ، وعنى بدراسة النبات والأعشاب فى مصر والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، وألف فى ذلك كتابين : « كتاب الجامع فى الأدوية المفردة » تناول فيه الأدوية النباتية المعروفة فى عصره ، ورتبها على حروف المعجم ، وكتاب « المغنى فى الأدوية المفردة » ، وهو مرتب على مداواة الأعضاء ، وكتاب « الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » ، ودرس عليه ابن أبي أصيبعة العالم المشهور ، وصاحب تراجم الأطباء ، وقد أشاد ببراعته وغزارة علمه ، ودقة فهمه لكتب الأقدمين . وتوفى ابن البيطار بدمشق سنة ٥٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) (٣) .

وظهر فى هذا العصر علماء آخرون فى الرياضيات والفلك ، وكان منهم مطرف الإشبيلي ، وقد برع فى الفلك ، واشتغل بالتصنيف فيه ، وكان ينسب

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٦ ؛ وقد أورد المقرئ شيئاً من شعره .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ .

(٣) راجع فوات الوفيات ج ١ ص ٢٠٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤ و ٤٥ .

إلى الزندقة بسبب اعتكافه في هذا الشأن ، فكان يخفى تصانيفه ونتائج بحوثه عن أهل عصره (١) .

— ٢ —

وهكذا كانت الحركة الفكرية بالأندلس في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، تحاول رغم اضطرابها أن تعمل على وصل ماضيها بحاضرها . فلما نهضت مملكة غرناطة من غمر الفوضى ، وبدأت الأندلس حياتها الجديدة في ظل هذه المملكة الفتية الجديدة ، أخذت الحركة الفكرية في الاستقرار ، وآنست جواً من الهدوء والطمأنينة . وكان ملوك غرناطة جرياً على سنن ملوك الأندلس السالفين ، من حماة العلوم والآداب ، وكان بلاط غرناطة يسطع بتقاليده الأدبية الزاهرة ، كما سطعت من قبل قصور ملوك الطوائف ، وكان أمراء بني الأحمر أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء . واشتهر عميدهم ومؤسس دولتهم محمد بن الأحمر ، بحمايته للعلم والأدب ، وكانت له أيام خاصة يستقبل فيها الشعراء وينشدونه قصائدهم (٢) . وكان ابنه محمد الفقيه عالماً ضليعاً ، يعشق مجالس العلم ويؤثر العلماء بعطفه ، ويقرض الشعر (٣) ، وكذا كان ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالخلوع ، عالماً شاعراً ينظم الشعر المستظرف ، وقد أورد لنا ابن الخطيب قصيدة من شعره يقول فيها :

واعدني وعداً وقد أخلفا أقل شيء في الملاح الوفا
وحال عن عهدى ولم يرعه ما ضره لو أنه أنصفا
ما بالها لم تتعطف على صب لها ما زال مستعظفا (٤)

وبلغت الحركة الفكرية والأدبية ذروة ازدهارها ، في مملكة غرناطة ، في عصر السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري (٧٣٣ — ٧٥٥ هـ) ، وولده السلطان محمد الغني بالله (٧٥٥ — ٧٩٣ هـ) . وكان السلطان أبو الحجاج نفسه ،

(١) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ١٣٨ .

(٢) اللعة البدرية ص ٣١ .

(٣) د د ص ٣٨ .

(٤) راجع هذه القصيدة في اللعة البدرية ص ٤٩ .

علماً أدبياً يشغف بالفنون . واشتهر الأمير أبو الوليد إسماعيل بن السلطان يوسف الثاني بأدبه وبارع نثره ، وهو صاحب كتاب « نثر الجمان » الذى يترجم فيه لأعلام عصره فى الشعر والأدب (١) .

وكان من بين وزراء الدولة النصرية وكتابها ، كثير من أعلام الشعر والأدب . ويكفى أن نذكر فى هذا المقام ابن الحكيم الرندى ، وابن الجياب ، وابن الخطيب ، وابن زمرك ، والشريف العقيلي خاتمة أدباء الأندلس ووزرائها ، وهم جميعاً من أقطاب الحركة الأدبية فى مملكة غرناطة ، ومن أعلام وزرائها وسادتها . وسنعود إلى التحدث عنهم فيما بعد .

ومما تجدر ملاحظته ، أن الحركة الفكرية الأندلسية فى ذلك العصر ، تكاد تنحصر فى النواحي الأدبية ، فقد ازدهر الأدب والشعر ، وحفلت غرناطة بجمهرة من أكابر الأدباء والشعراء ، ولكن العلوم العقلية أصابها الركود ، وقلمنا نجد فى هذه الفترة أحداً من أقطاب الطب والفلسفة أو العلوم الطبية ، أو غيرها من العلوم المحضة ، التى ازدهرت من قبل بالأندلس ، ونىغ فيها ثبت حافل من أكابر العلماء والفلاسفة . هذا بينما احتفظت الآداب فى مملكة غرناطة بروائها وازدهارها ، حتى اللحظة الأخيرة من حياتها .

وقد تقلبت الحركة الفكرية الأندلسية فى المائتين وخمسين عاماً التى عاشتها مملكة غرناطة ، فى أطوار ثلاثة : طور الفتوة ، وطور النضج ، وطور الإنحلال الأخير . وسوف نحاول أن نستعرض هذه الأطوار الثلاثة تباعاً ، ذاكرين أقطاب التفكير والأدب فى كل مرحلة منها .

٣ —

ويبدأ الطور الأول باستقرار مملكة غرناطة وتوطدها ، فى أواخر القرن السابع الهجرى وأوائل القرن الثامن .

وقد حفلت هذه الفترة التى بزغت فيها شمس الأندلس من جديد ، بجمهرة من الشعراء والأدباء والعلماء ، وازدهر الأدب ، واستعاد الشعر بنوع خاص ، كثيراً من روعته وروائه القديم .

(١) نفع الطيب ج ٣ ص ٤٠٤ ، وراجع أزهار الرياض ج ١ ص ١٨٦ .

وكان في طليعة شعراء هذه الفترة ، الكاتب البليغ والأديب البارع ، الوزير ابن الحكيم وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى اللخمي الرندي وأصلهم من بيوتات إشبيلية ، وكان جد والده يحيى طبيباً عرف بالحكيم ، وأسبغ لقبه على الأسرة . ولما اضطربت الفتنة بالأندلس أيام الطوائف ، انتقلت الأسرة إلى رندة ؛ وولد ابن الحكيم برندة سنة ٦٦٠ هـ ووفد على غرناطة فتي ، أيام السلطان أبي عبد الله محمد المعروف بالفقيه ، فولاه كتابته في ديوان الإنشاء . ثم تقلد بعد وفاته الوزارة لولده السلطان أبي عبد الله المخلوع ، إلى جانب وزيره أبي سلطان عزيز الداني . فلما توفي أبو سلطان انفرد ابن الحكيم بالوزارة ، ولقب بذي الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة . واستبد بالحكم حيناً حتى نشبت الثورة في غرناطة ضد السلطان أبي عبد الله المخلوع وحكومته الطاغية ، وقتل فيها ابن الحكيم يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) حسماً أسلفنا في موضعه . وكان ابن الحكيم شاعراً مجيداً وكاتباً بليغاً وخطيباً ذليلاً ، وقد وصفه ابن الخطيب في الإحاطة بقوله : « كان فريد دهره سماحة وبشاشة ولودعية وانطباعاً ، رقيق الحاشية ، نافذ العزمة ، زار المشرق وحج ودرس وتلقى عن مشايخه » . ومن شعر ابن الحكيم قوله :

ما أحسن العقل وآثاره	لو لازم الإنسان إيثاره
يصلون بالعقل الفتي نفسه	كما يصون الحر أسرارَه
لا سيما إن كان في غربة	يحتاج أن يعرف مقداره

ومن قوله في الغزل :

هل إلى رد عشيات الوصال	سبب أم ذاك من ضرب المحال
وليال ما تبقى بعدها	غير أشواق إلى تلك الليال
إذ مجال الوصل فيها مسرحي	ونعيمي أمر فيها ووال
ولحالات التراضي جولة	مزجت بين قبول واقتبال
وغزال قد بدا لي وجهه	فرايت البدر في حال الكمال
ما آمال التيه من أعطافه	لم يكن إلا على خصل اعتدال
خص بالحسن فما أنت ترى	بعده للناس حظاً في الجمال

وقوله :

ألا واصل مواصلة العقار ودع عنك التخلق بالوقار
وقم واخلع عذارك في غزال يحق لمثله خلع العذار
قضيب مائس من فوق دعص تعمم بالدجى فوق النهار
ولاح بخيده ألف ولام فصار معرفاً بين الدارى (١)

وكان ولده أبو بكر محمد بن الحكيم أيضاً من أعلام الأدب والشعر في تلك الفترة ، وقد تولى مثله الوزارة فيما بعد ، وكان من أساتذة ابن الخطيب ، وقد ألف في الأدب كتاباً سماه « بالموارد المستعذبة » (٢) .

ومن أكابر الشعراء في تلك الفترة أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني ، أصله من تلمسان كما يدل عليه اسمه . ووقد على غرناطة واتصل بالوزير ابن الحكيم ومدحه ، ونزل بالمرية سنة ٧٠٦ هـ واتصل بحاكمها القائد أبي الحسن بن كهاشة ، ومدحه فأجزل ضلته ، ووصفه ابن خاتمة بأنه من فحول الشعراء وأعلام البلغاء ، وقد جمع شعره في ديوان سمي « الدر النفيس في شعر ابن خميس » . وكانت وفاته بالمرية سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) ، ويمتاز شعره بالجودة والروعة ، ومن نظمه قوله :

نظرت إليك بمثل عيني جوذر وتبسمت عن مثل سمطي جوهر
عن ناصع كالدُر أو كالبرق أو كالطلح أو كالاقحوان مؤثر
تجرى عليه من لماها نطفة بل خمرة لكنها لم تعصر
لو لم يكن خمرًا سلافا ريقها تزرى وتلعب بالنهي لم تخطر
وقوله :

عجباً لها أيدوق طعم وصالها من ليس يأمل أن يمر ببالها
وأنا الفقير إلى تلة ساعة منها وتمنعي زكاة جمالها
كم ذا وعن عيني الكرى متأنف يبدو ويخفي في خفي مطالها
يسمو لها بدر الدجى متضائلا كنضائل الحسنة في اسمائها

(١) راجع في ترجمة ابن الحكيم وشعره : نفح الطيب ج ٢ ص ٧-٩ ؛ وج ٣ ص ٢٥٨-٢٦٣

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦٣

ومنه :

أنت ولكن بعد طول غياب وفرد لجأ ضاع فيه شبابه
وما زلت والعليا تعني غريمها أعلل نفسي دائماً بمثاب
وهيات من بعد الشباب وشرخه يلد طعاعى أو يسوغ شرابي
خدعت بهذا العيش قبل بلائه كما يخدع الصادى بلمع سراب^(١)

ومهم أبو حيان الغرناطى ، محمد بن يوسف بن على ، ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ وطاف بالمشرق ، وتوفى بمصر سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) ، وكان فوق تضلعه فى الحديث والتفسير بارعاً فى اللغة والأدب ، إماماً فى النثر ، ونظم الموشحات ، وقد ترك مؤلفات كثيرة فى التفسير واللغة والأدب ، وله شعر كثير ومن نظمته قوله فى موشحة :

إن كان ليل داج . وخاننا الإصباح . فنورها الوهاج . يغنى عن المصباح

سلافة تبدو كالكيوكب الأزهر
مزاجها شهد وعرفها عنبر
يا حبذا الورد منها وان سكر^(٢)

وكان الرئيس أبو الحسن على بن الحباب ، وزير السلطان يوسف أبى الحجاج وكاتبه ، فى طليعة أقطاب النثر والنظم فى تلك الفترة ؛ ولد بغرناطة سنة ٦٧٣ هـ وبرغ فى الشعر والأدب ، وتقلب فى مناصب الكتابة حتى غدا رئيساً لديوان الإنشاء ، وكان من معاونيه فى الكتابة أبو عبد الله بن الخطيب ، وقد ورث منصبه عقب وفاته ، وتوفى ابن الحباب ضمن ضحايا الوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) . ومن شعره قوله :

لله عصر الشباب عصرا فتح للخير كل باب
حفظت ما شئت فيه حفظاً كنت أراه بلا ذهب
حتى إذا ما المشيب وافي تدّ وتكن بلا إياب

(١) راجع فى اخبار ابن خميس وشعره : نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٤ — ١٩٤ ؛ وأزهار

الرياض ج ٣ ص ٣٠٣ .

(٢) راجع ترجمته وشيئا من شعره فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٨٢ — ٢٨٥ .
٢٢ أندلس

ومنه في الوعظ :

يا أيها المسك البخيل إلهك المنفق الكفيل
أنفق وثق بالإله ترع فان إحسانه جزيل^(١)

ومن شعراء ذلك العصر أبو عبد الله بن محمد بن جابر الأندلسي الهواري الضرير ،
وقد رحل إلى المشرق ، ومدح بعض أمرائه وقصد إلى سلطان ماردين فأجزل صلته ،
وقد أشار ابن بطوطة الرحالة إلى ذلك عند ذكره في رحلته لسلطان ماردين^(٢) ؛
ولابن جابر موشحات كثيرة ومدائح جيدة في الصحابة وآل البيت ، ومن شعره
في الغزل قوله :

شغفت بها حيناً من الدهر لم يكن
وما أصل هذا كله غير نظرة
سوى سكب دمعى في محبتها كسبي
إلى مقلة منها أصغت لها قلبي
ومنه :

تجنت فجن في الهوى كل عاقل
وما وعدت إلا غلت في مطالها
رأها وأحوال الحب جنون
كذلك وعد الغايات يكون
ومنه في الحكم :

مهلاً فما شيم الوفا منقادة
رتب المعالي لا تنال بحيلة
لمن ابتغى من نيلها أوطاراً
يوماً ولو جهد الفتي أوطاراً
وقال يتشوق إلى حمراء غرناطة :

دامت على الحمراء حمر مدامعى
طال المدى بي عنهم ولربما
والقلب فيما بين ذلك ذائب
قد عاد من بعد الإطالة غائب

* * *

وظهر من أقطاب اللغة في تلك الفترة عدة ، منهم أبو بكر محمد بن إدريس
الفرافى القضاعى المتوفى سنة ٥٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) . وقد كتب في علم العروض كتاب
« الختام المفصوص عن خلاصة علم العروض » ومنه نسخة بمكتبة الاسكوريال^(٣) .

(١) راجع في ترجمة ابن الجياب وشعره : نفح الطيب ج ٣ من ٢٢٣ — ٢٢٩ .

(٢) نفح الطيب ج ٤ من ٣٩٣ ؛ ورحلة ابن بطوطة ج ١ من ١٥٠ .

(٣) المستشرق بروكلان في تاريخ الأدب العربى Geschichte der Arabischen Litteratur

ومنهم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الحافظ النحوي شيخ ابن الخطيب الأب ، وقد ولد بيجان سنة ٦٢٧ هـ وتوفي سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) . قال ابن الخطيب في حقه : « انتهت إليه رئاسة العربية بالأندلس » ؛ وكان عالماً بالقرآن والحديث ، مجيداً للنثر والنظم ، ولى القضاء بغرناطة ، واتصل بسلطانها الأمير أبي عبد الله محمد بن محمد بن الأحمر فأكرم مثواه ، وقد صنف كتباً عدة في مختلف الفنون ، ومن آثاره المنشورة كتاب « صلة الصلة » الذى ألفه ذيلًا على كتاب الصلة لابن بشكوال (١) .

ومنهم أبو الحسن على بن يحيى الفزارى الملقب المعروف بابن البرزى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) ، وكان بارعاً فى اللغة ، وله شعريصفه ابن الخطيب بالضعف والهزال .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن على الفخار الإلبيرى ، كان شيخ النحاة بالأندلس فى عصره ؛ درس عليه الكثيرون ومنهم ابن الخطيب وابن زمرك ، وكانت وفاته بغرناطة سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) (٢) .

ونبغ من علماء الدين والفقه فى تلك الفترة ، القاسم بن عبد الله بن الشط الأنصارى الإشيلي ، المتوفى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٣ م) وله كتاب « البرنامج » عن قصاة الأندلس (٣) وأبو القاسم أبو عبد الله بن جزى الكلبي الغرناطى ، وقد ولد سنة ٦٩٣ ، وتولى الخطابة بغرناطة ، وتوفى قتيلاً فى سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) فى موقعة طريف ، ومن مؤلفاته كتاب « التسهيل لعلوم التنزيل » والأنوار السنية فى الألفاظ السنية (٤) .

وازدهر التصوف فى هذا العصر ، وكان من أقطابه يومئذ أبو الحسن على ابن فرحون القرشى القرطبي ، المتوفى سنة ٧٥١ هـ (١٣٤٥ م) ، وأبو اسحاق إبراهيم ابن يحيى الأنصارى المرسى ، وقد ولد فى سنة ٦٨٧ هـ وتوفى بغرناطة سنة ٧٥١ هـ

(١) راجع فى ترجمة ابن الزبير ، كتاب صلة الصلة المنشور بعناية الأستاذ ليني بروقنسال فى المقدمة

ص ، و — ح

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٢ و ١٩٦ .

(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٤) » » » ج ٢ ص ٢٦٥ .

(١٣٥٠م) : وله كتاب « زهرة الأكام » فى قصة يوسف : وأبو عبد الله محمد ابن محمد الأنصارى المالى المولود سنة ٦٤٩هـ ، والمتوفى سنة ٧٥٤هـ (١٣٥٣م) ، وله كتاب « بغية السالك فى أشرف المسالك » فى مراتب الصوفية وطرائق المريدين (١) .
وظهر من المؤرخين محمد بن يحيى بن أبى بكر بن سعيد الأنصارى المالكى .
وقد ولد سنة ٦٧٤هـ ، وتولى الخطابة والقضاء بغرناطة ، وتوفى قتيلا فى سنة ٧٤١هـ فى موقعة طريف . ومن آثاره كتاب « التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان بن عفان » (٢) .
ومن الرجل والرواة ، أبو البقاء خالد بن عيسى البلوى ، وقد رحل إلى افريقية والمشرق بين سنتى ٧٣٦ — ٧٤٠هـ ، وكتب عن رحلته كتاب « تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق » وانتفع فى مؤلفه بما كتبه ابن جبير عن المشرق (٣) .

وأما العلوم فلم تزدهر مثل إزدهارها فى الماضى ، ولم تشغل فى الحركة الفكرية سوى مجال محدود . وكان من أشهر علماء ذلك العصر يحيى بن هذيل حكيم غرناطة وفليسوفها ، وقد برع فى الطب والفلسفة والعلوم والرياضة ، وكان من شيوخ ابن الخطيب (٤) . ونستطيع أن نضع فى العلماء المعاصرين أيضاً شيخه أبا عثمان سعد بن أحمد بن ليون التجيبى ، وكان من أكابر الأئمة فى الفقه ، واختصر عدة من أمهات الكتب مثل كتاب « بهجة المجالس » لابن عبد البر . وكتب كتباً فى الهندسة والفلاحة (٥) .

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) « » « » « » ج ٢ ص ٢٦٠ ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ ، وتوجد من كتابه نسخة خطية بدار الكتب .

(٤) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ٥٢ .

(٥) « » « » « » ج ٣ ص ٣٠٢ .

الفصل الثالث

عهد النضج والازدهار

تقدم الحركة الفكرية • ابن سلبطور الشاعر • أبو القاسم الحسيني • ابن خاتمة • ابن الخطيب • نشأته وحياته • سفارته الى المغرب وقصيدته للسلطان • وصفه لحياته في الوزارة • سقوطه وجوازه الى المغرب • احتفاء السلطان به وانشاده في حضرته • ابن الخطيب وابن خلدون • ما قاله الأمير ابن الأحمر في تقدير ابن الخطيب • تهنئته للسلطان • عوده الى الأندلس والى تولى الوزارة • وصفه لجهوده يومئذ • ما ينسب اليه من طغيان • فقده لحظوته وجوازه الى المغرب • كيد خصومه له • اتهامه بالزندقة • تطور الحوادث في المغرب • تفاهم بلاط غرناطة مع سلطان المغرب على الإيقاع به • الوزير ابن زمرك يلاحقه في فاس • اتهامه ومصرعه • مؤلفاته وآثاره • أثره في تطور الحركة الأدبية • ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب • نشأته وحياته • مكانته الأدبية • نماذج من شعره وموشحاته • الموازنة بينه وبين ابن الخطيب • بقية الشعراء والأدباء في تلك الفترة • الفقهاء • المؤرخون •

شهدت الحركة الفكرية الأندلسية في مملكة غرناطة ، مرحلة النضج في أواسط القرن الثامن الهجري وأواخره ، وشهدت في النصف الأخير من هذا القرن ، ذروة قوتها وازدهارها . ولا غرو فهذه الفترة هي التي سطع فيها ابن الخطيب ، أعظم مفكرى الأندلس وأعظم كتابها وشعرائها في ذلك العصر . وامتازت هذه الفترة ، بروعة إنتاجها الأدبي في النثر والنظم ؛ وربما كان للأحداث والفتن الداخلية الخطيرة التي جازتها الأندلس يومئذ ، أكبر أثر في تغذية هذه الحركة الممتازة ، وإمدادها بمختلف الإنفعالات القوية ، التي طبعت إنتاجها .

وقد بدأت هذه الحركة في عصر السلطان أبي الحجاج يوسف بن اسماعيل ، أعظم سلاطين بني نصر (٧٣٣ - ٥٧٥٥ هـ) ، وأشدهم حماسة في تعصيد الآداب والفنون ، واستمرت من بعده طوال القرن الثامن الهجري ، وحفلت بعدد كبير من الأدباء والشعراء الممتازين . وقد استعرضنا الكثير منهم فيما تقدم ، حتى منتصف القرن الثامن ، وسنمضي هنا في استعراض بقية هذا الثبت الحافل حتى أواخر هذا القرن .

كان من أكابر الشعراء في بداية هذه الفترة ، ابن سلبطور شاعر ألمرية ، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور الحباشي ، والظاهر أنه قد يرجع إلى أصل نصراني . كما يدل بذلك اسمه سلبطور (سلفاتور) . نشأ بالمرية ، وبرع في الأدب ، وتدرّب منذ فتوته على ركوب البحر وقيادة السفن ، وناب في قيادة الأسطول عن خاله القائد أبي علي الرنداحي ، واشتهر برائق نظمه . وفي أواخر حياته انحرف عن جادة الصواب ، وانكب على ملاذه وشهواته ، وأضاع كل ثروته . حتى ساءت حالته ، وانحدر إلى هاوية الفقر والبؤس ، فعبر البحر إلى العدوّة . وتوفي بمراكش سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) . ومن شعره يمتدح السلطان حين حل بالمرية :

أثغرك أم سمط من الدر ينظم وريقك أم مسك من الراح تخم
ووجهك أم باد من الصبح نير وفرعك أم داج من الليل مظلم
أعلل منك الوجد والليل ملتحق وهل ينفع التعليل والخطب مؤلم
وأقنع من طيف الخيال بزورة لو أن جفوني بالمنام تنعم (١)
ومهم أبو عبد الله محمد بن جزي ، الكاتب الشاعر ، ولد بغرناطة سنة ٧٢١ هـ ، وانتظم منذ فتوته بين كتاب السلطان أبي الحجاج يوسف ، وحظي لديه ومدحه بطائفة من القصائد الرنانة ، ثم غضب عليه ونكبه ، فغادر الأندلس إلى العدوّة ، ودخل في خدمة السلطان أبي عنان المريني ومدحه ، وكان بارعاً في النثر والنظم ؛ ذكره ابن الأحرر في «نثير الجمان» وأشاد بمقدرته ، ووصفه بأنه أعظم شاعر في عصره . وكانت وفاته بمراكش سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) (٢) . وهو الذي أنشأ رحلة ابن بطوطة من مذكرات صاحبها حسبما ينوه بذلك في خاتمة الكتاب (٣) .

ومهم قاضي الجماعة ، أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسيني ، ولد سنة ٦٩٧ هـ ، وتوفي بغرناطة سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٨ م) ، ولي رئاسة القضاء ، وكان

(١) نفح الطيب (عن الإحاطة) ج ٣ ص ٤٥٠ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٨٤ وما بعدها ؛ وأزهار الرياض ج ٢ ص ١٨٩ وما بعدها ، وفيه يورد بعض شعره .

(٣) أزهار الرياض ج ٢ ص ١٩٥ ؛ ورحلة ابن بطوطة .

فوق تضلعه في الحديث والفقه ، شاعراً مجيداً ، وكتب في العروض والأدب ، وجمع شعره في ديوان أسمىه « جهد المقل » (١) .

ومنهم أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الانصاري ؛ ولد بالمرية سنة ٧٢٤ هـ . وتوفي سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٩ م) . وكان أديباً وشاعراً مبرزاً . وصفه ابن الخطيب بأنه « الصدر المتفنن ، المشارك القوى الإدراك ، السديد النظر ، الثاقب الدهن ، الجيد القريحة » . وكتب عن مسقط رأسه المرية ، كتاباً أسماه « مزنة المرية على غيرها من البلاد الأندلسية » . وله ديوان شعر محفوظ بمكتبة الاسكوريال . ومن شعره قوله :

هو الدهر لا يتي على عائد به فمن شاء عيشاً يصطر لنوائبه
فمن لم يصب في نفسه فمصابه بفوت أمانيه وفقد حبايبه
وكتب ابن خاتمة إلى صديقه ابن الخطيب ، حينما أزمع الرحلة عن الأندلس ؛ رسالة مؤثرة يخاطبه فيها بقوله : « انكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ،
وواسطة سلكها ، وطراز ملكها ، وتمام زينتها ، ثم أنتم مدار أغلاكها ، وسر سياستها
أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، والذي عليه عقد إدارتها ، وبه قوام
إمارتها » (٢)

نعرض بعد ذلك ، إلى ألمع فترة في الحركة الفكرية ، في ظل مملكة غرناطة ، وهي الحركة التي كان قطبها ومحورها ، أعظم مفكرى الأندلس وأعظم شعرائها وكتابها ، في القرن الثامن الهجري ، ونعني لسان الدين بن الخطيب .
وقد أشرنا فيما تقدم إلى نشأة ابن الخطيب ، واستعرضنا طرفاً من حياته السياسية ، ونريد هنا أن نبسط القول في حياته الفكرية والأدبية .

وهو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب ؛ ولد في لوشة من أعمال غرناطة ، في بيت من أكرم بيوت الأندلس في شهر رجب

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ من ١٠٧ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ من ١٨٤ و ٤١١ وما بعدها ؛ وكذلك بروكلمان ، المصدر السابق

سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) ، ثم انتقل بيته من لوشة إلى غرناطة ، وخدم أبوه عبد الله في القصر والخاص في عهد السلطان يوسف أبي الحجاج . وتلقى ابن الخطيب دراسة حسنة ، ودرس الطب والفلسفة والشريعة والأدب ، وبرز في النثر والنظم منذ حداثة ، ولما توفي أبوه في سنة ٧٤١هـ حل مكانه في خدمة القصر ، وهو فقي في عنفوانه ، وتولى أمانة السر للوزير أبي الحسن بن الجياب ، وزير السلطان يوسف . ولما توفي ابن الجياب في الوباء الكبير سنة ٧٤٩هـ ، خلفه في الوزارة والكتابة ، إلى جانب كبير الوزراء الحاجب أبي النعيم رضوان ، وندبه السلطان لبعض السفارات والمهام السياسية . ولما توفي السلطان أبو الحجاج يوسف (٧٥٥هـ) ، وخلفه ولده محمد الغني بالله ، استمر الحاجب رضوان في الإضطلاع بوزارة ، واستمر ابن الخطيب إلى جانبه في منصبه ، وندب للصباية على الأمراء القصر ، وأرسله السلطان لأول ولايته (أواخر سنة ٧٥٥هـ) سفيراً إلى السلطان أبي عنان سلطان المغرب ، على رأس وفد من وزراء الأندلس ، يستنصره ويستغيث به على مقاومة طاغية قشتالة . وأنشد ابن الخطيب حين يلقى السلطان قصيدة يقول فيها :

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجى قمر
ودفعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى لنا وفي الحل كفك المطر
والناس طرا بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن في غير عليك ماله وطر

فاهتز السلطان لقصيدته ، ووعدهم بإجابة ملتمسهم وتحقيق رغباتهم (١) :
ثم وقعت الثورة في غرناطة سنة ٧٦١هـ (١٣٥٦م) ، وقتل الحاجب رضوان ، وأقصى الغني بالله عن الملك ، وفر إلى وادي آش ، وخلفه على العرش أخوه إسماعيل ، وولى ابن الخطيب الوزارة للملك الجديد حيناً ، ولكن سرعان ما غضب عليه وأمر باعتقاله . ويصف لنا ابن الخطيب في ترجمته لنفسه ، في كتاب الإحاطة ، هذه المراحل الأولى من حياته العامة في قوله : «فقلدني السلطان سره (يريد أبا الحجاج) ولما يستكمل الشباب ، واستعملني في السفارة إلى الملوك ، واستنابني بدار ملكه ،

ورمي إلى بجاتمه وسيفه ، واثتمنى على صون حضرته وبيت ماله ، وسجوف حرمه ،
ومعقل أمتاعه . ولما هلك السلطان ، ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسي ،
وقصر المشورة على نصحي ، إلى أن كانت الكائنة ، فاقتدى فى أخوه المتغلب
على الأمر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم حمله أهل الشحنة من أعوان
ثورته ، على القبض على ، فكان ذلك .

وتدخل السلطان أبو سالم ملك المغرب ، فى شأن السلطان المخلوع الغنى بالله ،
وكانت تربطه به مودة وصداقة ، مذ كان أيام محنته يلوذ بحمايته بغرناطة ، وأرسل
إلى ملك غرناطة الحديد سفيراً يطلب إجازة الغنى بالله ووزيره المعتقل إلى المغرب ،
فأجابه السلطان إسماعيل إلى مطلبه ، وجاز الغنى بالله وابن الخطيب إلى المغرب
(المحرم سنة ٥٧٦١) ، واستقبلهما السلطان أبو سالم فى فاس بترحاب ، واحتفل
بقدميهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدته المشهورة ، التى
يدعوه فيها لنصرة سلطانه وهذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر	وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى داراً على اللوى	عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى	بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذى ربي جناحي وكره	فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر
ومنها :	

قصدناك ياخير الملوكة على النوى	لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها	وقد رابنا منها التعسف والكبر
وعذنا بذاك المجد فانصرم الردى	ولذنا بذاك العزم فانهزم الشر
ولما أتينا البحر نرهب موجه	ذكرنا نذاك الغمر فاحتقر البحر
ومنها :	

وأنت الذى تدعى إذا دهم الردى	وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا	بيا لمرين جاءه العز والنصر
ونخذ يا إمام الحق بالحق ثأره	ففى ضمن ماتأتى به العز والأجر (١)

(١) تراجع هذه القصيدة بأكملها فى نفع الطيب ج ٣ ص ٤٠ — ٤٧

وكان لإنشاد ابن الخطيب في السامعين أعظم وقع . ويقول لنا ابن خلدون وقد كان من شهود ذلك الحفل ، إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى . وكان هذا أول لقاء بين هذين المفكرين العظمين ، اللذين تجمع بينهما مشابهاة عدة ، فقد كان كلاهما أستاذ عصره في التفكير والكتابة ، وقد خاض كلاهما نفس الحياة السياسية المضطربة ، وأخذ بقسط بارز في حوادث عصره ، وفي توجيه شئونه ؛ وكان ابن خلدون يشغل في دول المغرب ، نفس المركز الذي يشغله ابن الخطيب بالأندلس ، وقد استأثر في المغرب بزعامة التفكير والكتابة ، التي يستأثر بها ابن الخطيب بالأندلس . وتوثقت بين المفكرين العظمين مدى حين ، أواصر المودة والصداقة ، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ، حينما عبر ابن خلدون بعد ذلك إلى الأندلس ، واتصل بسلطانها الغني بالله ؛ وكان كل منهما يقدر صاحبه ويحل مواهبه ، وقد ترجم كلاهما صاحبه بما ينم عن هذا التقدير والإجلال ، فيقول لنا ابن خلدون مثلاً في ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ في الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وملاً الدولة بمدايحه ، وانتشرت في الآفاق قدماءه » . ثم ينوه بعد ذلك بروعة رسائله السلطانية ، وبراعته في الإدارة والحكم (١) .

ويصف لنا الأمير أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر ، معاصر ابن الخطيب ، خلاله ومواهبه في تلك العبارات الرثاءة :

« هو شاعر الدنيا ، وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب الأرض إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه في الكتب ، ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم في الماضي ، وهو نفيس العدوتين ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية » . ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته في الهجاء ، وإلى كونه قد هجا ابن عمه سلطان الأندلس بما لا يليق ويحجل (٢) .

وتجول ابن الخطيب حيناً بالمغرب ، واستقر بسلا ، وتوالت مدائح السلطان أبي سالم ، ومنها قصيدة طويلة ينهى فيها السلطان بفتح تلمسان (٥٧٦١) هذا مطلعها :

(١) « كتاب المروج ٧ من ٣٣٢ وما بعدها ٤ » وراجع كتابي ابن خلدون ص ٣٦ — ٣٩ ؛ وقد أورد المرقى هذه القصيدة كاملة في أزهار الرياض (ج ١ ص ١٦٩ وما بعدها) .

(٢) راجع فتح الطيب ج ٣ ص ٤٠٤ و٤٠٥ .

أطاع لباني في مديحك إحسانى وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان
فأطلعها تفتر عن شنب المنى وتسفر عن وجه من السعد جيانى
كما ابتسم النوار عن أدمع الحيا وجف بجذ الورد عارض نيسان
كما صفقت ريح الشمال شموها فبان ارتياح السكر في غصن البان^(١)

وبعث إلى السلطان في الوقت نفسه من سلا، برسالة بليغة يهنئه فيها بذلك
الفتح الكبير^(٢).

وأنفق ابن الخطيب ومليكه في المنى زهاء عامين ونصف، حتى مهدت
حوادث الأندلس لسقوط المغيص، واستطاع الغنى بالله بمعاونة الوزير عمر المتغلب
على المغرب، أن يسترد ملكه، وذلك في جمادى الآخرة سنة ٥٧٦٣هـ (١٣٦١م)،
ورد السلطان وزيره ابن الخطيب إلى سابق مكانته في الوزارة؛ ولكنه لم ينعم تلك
المرّة بسابق حظوته ونفوذه، إذ كان ينافسه في السلطة شيخ الغزاة عثمان بن يحيى،
الذى قر به السلطان وأولاه عطفه، لما قام به من معاونته في استرداد ملكه. ونشبت
بين الرجلين منافسة شديدة، وما زال ابن الخطيب يحرض السلطان ويحذره من نفوذ
عثمان وآله، ويذكره بسابق غدرهم، حتى استجاب السلطان إلى تحريضه ونكبهم
(رمضان سنة ٥٧٦٤هـ)، وبذا خلا له الجو، وتبوأ ذروة النفوذ والسلطان.

ويصف لنا ابن الخطيب، جهوده وعمله في الوزارة يومئذ في قوله: «ثم صرفت
الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة، بكر الحسنات بهذه الخطة، بل بالجزيرة
فيما سلف من المدة، فتأتى بمنّة الله تعالى من صلاح السلطان، وعفاف الحاشية
والأمن. وروم الثغور، وتشمير الجباية، وإنصاف الحماة والمقاتلة، ومقارعة الملوك
المجاورة، في إثثار المصلحة الدينية، والصدع فوق المنابر، ضماناً من السلطان،
يترياق سم الثورة، وإصلاح بواطن الخاصة والعامة...»^(٣).

غير أن معظم الروايات تدل من جهة أخرى، على أن ابن الخطيب جنح

(١) وردت هذه القصيدة بأكملها في نفع الطيب ج ٣ ص ١٦ — ١٩؛ وفي بعض أجزاءها بنحو
ابن الخطيب نحو أبي البقاء في مرثيته الأندلسية.

(٢) راجع هذه الرسالة في نفع الطيب ج ٣ ص ١٩ و٢٠.

(٣) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ١١.

عندئذ إلى الاستبداد وسوء المسلك والسيرة . وإليك كيف يصف صديقه ومعاصره ابن خلدون هذه المرحلة من حياته :

« وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلط بنيه ببندمائه وأهل حكومته . وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وغلقت به الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغضبت به بطانة السلطان وحاشيته ، ففتنوا في السعاية فيه » (١) .

وأنفق ابن الخطيب بضعة أعوام أخرى في الوزارة ، وهو يستأثر بكل سلطة ، ويتصرف تصرف الحاكم المطلق ، ويثير حوله ضراماً من البغضاء والحسد . وكان السلطان يعرض في البداية عن الإصغاء لأعدائه والوشاة به ، ولكنه بدأ في النهاية يتأثر بسعائيتهم . وشعر ابن الخطيب أنه قد بدأ يتغير عليه ، وخشى العاقبة ، فعول على مغادرة الأندلس ، واستأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية ، وسار إليها في نفر من خاصته ومعه ولده علي ؛ وما كاد يصل إلى جبل الفتح ، حتى عبر البحر إلى سبتة (٧٧٣ هـ) ، وذلك بتفاهم سابق بينه وبين السلطان عبد العزيز المريني ، ملك المغرب . وكان السلطان يقيم يومئذ في تلمسان ، فقصده إليها ابن الخطيب ، واستقبله السلطان بحفاوة ، وأنزله أكرم منزل ، وبعث سفيراً إلى الأندلس ليسعى في استقدام أسرة الوزير المنفي ، فأتى بها معززة مكربة ، وتبوا ابن الخطيب في بلاط ملك المغرب أسماً مكانة . وغص خصوم ابن الخطيب بغرناطة ، بنجاته على هذا النحو ، فعملوا على ملاحقته وحقق هيئته ، فاتهموه بالزندقة والخروج عن شريعة الإسلام ، والطمع في النبي ، والقول بالحلول ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدتين ، ونسبوا إليه في ذلك أقوالاً ومقالات أولوها وفق مقاصدهم . وكان تلميذه وخلفه في الوزارة أبو عبد الله بن زمرك ، أكبر مروج لهذه الدعاية ؛ وتولى صوغ الإتهام القاضي أبو الحسن بن الحسن النباهي عدو ابن الخطيب ، وأقوى بوجوب حرق كتبه التي تتناول العقائد والأخلاق ، فأحرقت في غرناطة بمحضر من الفقهاء والمدرسين والعلماء . « لما تفضمت من المقالات التي أوجبت ذلك عندهم وحققته لديهم » (سنة ٧٧٣ هـ) (٢) .

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٥ .

(٢) كتاب الرقبة العليا ، أو تاريخ قضاة الأندلس لأبي الحسن النباهي المنشور بعناية الأستاذ

ليني بروئنسال ص ٢٠٢ .

وجه أبو الحسن إلى ابن الخطيب بالمغرب رسالة شديدة ، ينوه فيها بما ارتكبه من الطعن في حق النبي ، ويقول : « فانه نقل عنكم في هذا الباب أشياء منكورة ، يكبر في النفوس التكلم بها ، أنتم تعلمونها وهي التي زرعت في القلوب ما زرعت من بغضكم وإيثار بعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل ، من وجه آخر عليكم ، ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص السلطة عنكم ، لكانت الأمة المسلمة امتعاضاً لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات لطلب الحق منكم » . ثم يعدد مثالبه في الحكم قائلا : « فليس يعلم أنه صدر منكم من العيث ، في الإبطار والأموال ، وهتك الأعراض وإفشاء الأسرار ، وكشف الأسرار ، واستعمال المكر والحيل والغدر ، في غالب الأحوال ، للشريف والمشروف والخادم والمخدوم » (١) . وسجل القاضي أبو الحسن تهمة الرندقة على ابن الخطيب ، وصادق السلطان على حكمه ، وأرسل القاضي رساله إلى السلطان عبد العزيز ، يطالب بتنفيذ حكم الشرع في الوزير الملحد وهو الإعدام ، فأنفى السلطان لطلبه وعنف رسل الأندلس ، وقال لهم : « هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه » وردهم خائبين ، وزاد في إكرام ابن الخطيب ورعايته (٢) .

ولما توفي السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل (٧٧٤ هـ) ، وخلفه ولده السعيد طفلاً على العرش غادر بلاطاً المغرب تلمسان ، وسار ابن الخطيب برفقة الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة ، ونزل بفاس ، واقتنى الضياع والدور ، واستمر على مكانته في الدولة . ولكن حوادث المغرب ما لبثت أن تمخضت عن انقلاب جديد . ذلك أن الثورة نشبت في شمال المغرب ، على يد بعض الزعماء من بني مرين . وعصبت حكومة الأندلس هذه الحركة وأمدتها بالعون ، ونادى الثوار بولاية الأمير أحمد بن السلطان أبي سالم . وحاول الوزير ابن غازي مقاومة الثوار فلم يفلح ، واقتحم الخوارج فاس فأذعن الوزير ، وخلع الملك الطفل السعيد ، وجلس السلطان أحمد على العرش وذلك في أوائل سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) .

وكان ابن الخطيب قد لجأ في أثناء ذلك إلى البلد الجديد (ضاحية فاس) ،

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٦٨ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ؛ ونفح الطيب ج ٣ ص ٦٧ و ٦٨ .

وكان التفاهم قد تم بين السلطان ابن الأحمر وزعماء الفتنة . بشأن ابن الخطيب ومصيره ؛ فلما وقع الانقلاب بادر السلطان بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه لابن الأحمر ، ولم يدخر وزيره سليمان بن داود ، وقد كان من ألد خصوم ابن الخطيب جهداً ، فى تشديد النكير عليه وتدبير مصرعه . وكان ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام من وزيره السابق ، لما نعى إليه من أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز على محاربتة ، وبعث ابن الأحمر وزيره أبا عبد الله بن زمرك إلى فاس ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وعقد السلطان أحد مجالس من رجال الدولة وأهل الشورى ، استدعى إليه ابن الخطيب لمناقشته . ومواجهته بالتهمة المنسوبة إليه ، وأخصها تهمة الزندقة ، استناداً على ماورد فى بعض رسائله ، وعزر وعذب أمام الملاء ، وأفى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله ، ودس عليه الوزير سليمان بعض الأوغاد فقتلوه خنقاً فى سجنه ، وأخذت جثته فى الغد وأضرمت فيها النار ثم دفنت .

وهكذا ذهب الكاتب والمفكر الكبير ، ضحية الجهالة والتعصب ، والأحقاد السياسية الوضيعة ؛ وقد نقل إلينا صديقه ابن خلدون عنه أبياتاً من الشعر ، كان يرددها وهو فى سجنه ، ويرثى بها نفسه توقعاً لمصيره الحزن :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت وجئنا بوعظ ونحن صُموت
وأنفاسنا سكنت دفعة كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنّا عظاماً فصرنا عظاماً وكنّا نقوت فها نحن قوت
وكنّا شمسَ سماء العلاء غربن فناحت عليها البيوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له فقل يفرح اليوم من لا يموت (١)

* * *

ومن الصعب علينا أن نلم بمجهود ابن الخطيب الفكرى والأدبى فى هذا المقام الضيق . والحقيقة أن ابن الخطيب كان عبقرية متعددة الجوانب ، فكان طبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وكاتباً ، وكان سياسياً ومؤرخاً ، وقد ترك لنا تراثاً ضخماً متنوعاً ، من مؤلفات عديدة ، وديوان شعر حافل ، ورسائل أدبية وسياسية لاتحصى ؛ ومن

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ و ٣٤٢ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٢٣١ .

أشهر رسائله بنوع خاص تلك التي كان يوجهها إلى أهل الأندلس من وقت إلى آخر ، يحثهم فيها على الجهاد ، والدود عن وطن يتربص به العدو ، ويعتزم القضاء عليه ، وهي رسائل تدلى بما كان لابن الخطيب من فكر ثاقب وبصيرة نافذة ، هذا فضلاً عما تمتاز به من روعة البيان والأسلوب .

ونستطيع أن نذكر من مؤلفات ابن الخطيب الكتب الآتية :

الإحاطة في أخبار غرناطة . مركز الإحاطة بأدباء غرناطة . الحلل المرقومة (بالاسكوريال) . اللوحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية . رقم الحلل في نظم الدول . الحلل الموشية في الأخبار المراكشية . التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى . (وهو أيضاً تاريخ لغرناطة) . منفعة السائل في المرض الهائل . (وهو يتعلق بالوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ) (بالاسكوريال) . ربحانة الكتاب (بالاسكوريال) . الديوان (بالاسكوريال) . السحر والشعر . الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة (١) . ولابن الخطيب تراث حافل من الرسائل الأدبية والسياسية ، وقد نقل إلينا المقرئ منها العدد الجهم ، ونقل إلينا ابن خلدون بعض ما كان يتبادل به معه (٢) . ويفرد المقرئ في كتابه نفح الطيب مجلدين كاملين (هما الثالث والرابع) لابن الخطيب وأخباره وشعره ونثره ، وشيوخه وتلاميذه ، وقد نقل إلينا فيهما من مختلف كتبه ورسائله ، فصولاً وشذوراً لا تحصى ، كما نقل إلينا وصيته لأولاده ، وهي من أبدع ما كتب (٣) .

وكان ابن الخطيب من أئمة الموشحات الأندلسية ، ومن أشهر نظمته الموشحة الذائعة الصيت التي مطلعها :

جادك الغيث إذا الغيث همى يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلماء في الكرى أو خلصة المختلس
إذ يقود الدهر أشتات المنى ينقل الحظو على ما يرسم

(١) وقد انتهى إلينا معظم هذه الكتب ، ونشر عدد منها مثل الإحاطة (الأجزاء الأولى) ، واللمعة البدرية ، والحلل الموشية ، ورقم الحلل .

(٢) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٢١١-٢٣٠؛ وقد أورد لنا المقرئ في أزهار الرياض تفصيلاً

أوفى لآثار ابن الخطيب (ج ١ ص ١٨٩ و ١٩٠) .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤١٩-٤٢٦ .

زمرّاً بين فرادى وثناً مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا فثغور الزهر منه تبسم^(١)

كان ابن الخطيب قطب الشعر والنثر في عصره ، وكان محور الحركة الفكرية الأندلسية كلها ، في أواسط القرن الثامن الهجري ، تجتمع إليه وتلتف حوله ؛ وقد أتينا على ذكر بعض أكابر الشعراء من معاصريه ، المتقدمين عنه ، مثل ابن الجياب وابن سلبطور وابن خاتمة . وسنأتي هنا على ذكر أقطاب الشعر والأدب من معاصريه المتأخرين عنه . بيد أنه يجب أن نلاحظ أن عبقرية ابن الخطيب الأدبية ، قد طبعت هذه المرحلة كلها ، من تاريخ الحركة الفكرية الأندلسية ، بطابعها القوي ، وبعثت إليها كثيراً من أسباب القوة والروعة ، حتى ليسوغ لنا أن نقول إن مدرسة ابن الخطيب الأدبية ، امتدت منذ عصره إلى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري .

بل يلوح لنا أن الأثر القوي الذي بثته هذه المدرسة الأدبية الباهرة ، لم يقتصر على مملكة غرناطة ، بل تعدى حدود الأندلس المسلمة إلى قواعد الأندلس الذاهبة ، التي دخلت في حوزة النصارى وتدجن أهلها ، فبدا بها شعاع ضئيل من النبوغ الأدبي القديم ، وظهر فيها بعض الشعراء الموهوبين ، بالرغم من مضي أكثر من قرن على خضوعها لحكم اسبانيا النصرانية . فمثلاً نجد بين كتاب بلنسية وشعرائها يومئذ ، الفقيه أبا جعفر بن عبد الملك العذري ، ومما كتبه لابن الخطيب في بعض الشئون :

إني بمجداك لم أزل مستيقناً أن لا يهدم بالتغير ما بنى
إذ أنت أعظم ماجد يعزى له صنع وأكرم من عفا عن جنى
وكتب له أيضاً :

إن كان دهر قد أساء وجارا فدمام مجداك لا يضيع جارا
فلأنت أعظم ملجأ ينجي إذا ما الدهر أنجد مُوعداً وأغاراً^(٢)

(١) راجع هذه الموشحة بأكملها في نفع الطيب ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ٤٢٦ .

وكان الوزير ابن زمرك ، تلميذ ابن الخطيب وخلفه في الوزارة ، أعظم شخصية تزعمت من بعده الحركة الأدبية بالأندلس ؛ وهو محمد بن يوسف بن محمد الشهير بأبي عبد الله بن زمرك ، أصله من شرق الأندلس ، ونزحت أسرته إلى غرناطة ، واستقرت ببرض البيازين . وبه ولد أبو عبد الله سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٣م) ودرس دراسة حسنة في غرناطة وفاس ، وخدم حيناً في بلاط السلطان أبي سالم المريني . ولما نفى السلطان الغنى بالله إلى المغرب ، اتصل به ابن زمرك وانقطع إليه ، ثم عاد حين استرد ملكه ، فولاه كتابة السر وعمره بعطفه . وظهر ابن زمرك يومئذ ببارع أدبه ، وروعة نظمه ونثره ؛ وبنوه ابن الخطيب في الإحاطة بذكائه وخلالله ، وتفوقه في الدرس والأدب ، ويصف شعره بأنه « مترام إلى هدف الإجابة ، كلف بالمعاني البديعة ، والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة » .

وعمل ابن زمرك في كتابة السر في كنف ابن الخطيب وتحمت رعايته . ولكنه كان ضالماً مع خصومه ، فلما انقضت العاصفة على ابن الخطيب وأصابته المحنة ، كان ابن زمرك في طليعة أعدائه الساعين إلى هلاكه . وقد خلفه في الوزارة عقب فراره ، وهو الذي تولى مهمة السعي لدى بلاط فاس في محاكمته وإعدامه حسبما أسلفنا . واستمر ابن زمرك على حظوته ونفوذه أعواماً طويلة ، ولكنه كان لطغيانه وغطرسته وحدة لسانه ، يثير حوله كثيراً من البغض والخصومة . وفي أواخر عهد الغنى بالله فقد حظوته ونفوذه ، واعتقل ونفى خارج غرناطة ؛ ولكنه عاد بعد وفاته إلى الحضرة . وفي بداية عهد السلطان محمد بن يوسف الثاني ، أعيد إلى الوزارة ، فأساء السيرة ، واشتد عيظه وطغيانه ، وكثر خصومه . وفي ذات ليلة من سنة ٧٩٧هـ (١٣٩٥م) دهمه في منزله جماعة من المتآمرين ، فقتلوه وولديه وخدمه شر قتلة . وبنوه المقرئ بما في ذلك من عبر الدهر إذ كان ابن زمرك هو الساعي إلى مقتل أستاذه ابن الخطيب ، فكان أن دارت عليه الدائرة ، وقتل مثله ولكن بصورة أقسى وأشنع (١) .

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٦ — ٢٩٠ ، وينقل إلينا المقرئ ترجمة ابن زمرك عن كتاب المعاصره الأمير اسماعيل بن الأحمر ، وينقل إلينا في أزهار الرياض كثيراً من موشحاته (ج ٢ ص ١٧٧ وما بعدها) . وقد أورد المستشرق بروكلان (ج ٢ ص ٢٢٩) تاريخ مقتله في سنة ٧٩٥هـ (١٣٩٣م) ولكن رواية ابن الأحمر هي الأرجح .

ولابن زمر كثر جيد نقل إلينا المقرئ منه قصائد وموشحات عديدة،
فمن شعره قوله يمتدح سلطان الأندلس الغنى بالله في سنة ٥٧٦٥ :

لعل الصبا إن صافحت روض نعان	تؤدى أمان القلب عن ظبية البان
وماذا على الأرواح وهى طليقة	لواحتملت أنفاسها حاجة العاني
وما حال من يستودع الريح سره	ويطلبها وهى النوم بكتمان
وكالطيف أستقره فى سنة الكرى	وهل تنفع الأحلام غلة ظمان
إمام أعاد الملك بعد ذهابه	إعادة لا تأتى الحسام ولا وائى
فغادر أطلال الضلال دوارسا	وجدد للإسلام أرفع بنيان
وشيدها والمجد يشهد دولة	محافلها تزهى بيمين وإيمان

ومن قوله فى قصيدة طويلة يصف فيها دار الملك (الحمراء) :

فكم فيه للأبصار من متنزه	تجد به نفس الخليم الأمانيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به	ولم تلك فى أفق السماء جواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا	به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة قد جللت بحليها	من الوشى تنسى السابرى اليمانيا
وكم من قسى فى ذرة ترفعت	على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها	تظل عمود الصبح إذ بات باديها
سوارى قد جاءت بكل غريبة	فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره	فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
به البحر دفاع العباب تحاله	إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا
إذا ما جلّت أيدى الصبامتن صفحة	أرتنا دروعاً أكسبتنا الأباديا

ومن قوله يشيد بأعمال الأميرين سعد ونصر، ولدى السلطان ، فى ميدان

الجهاد :

يا آل نصر أنتم سرج الهدى	فى كل خطب قد تجهم مظلم
الفاتحون لكل صعب مقفل	والفارجون لكل خطب مبهم
والباسمون إذا الكماة عسواس	والمقدمون على السواد الأعظم
أبناء أنصار النبى وحزبه	وذوى السوابق والحوار الأعظم

ومن قوله في الغزل :

قيادى قد تملكه الغرام ووجدى لا يطاق ولا يرام
ودمعى دونه صوب الغوادى وشجوى فوق ما يشكو الحمام
إذا ما الوجد لم يبرح فؤادى على الدنيا وساكنها السلام
ولا بن زمرك موشحات كثيرة رائعة، ومنها موشحته الشهيرة في الإشادة بغرناطة
ومحاسنها إذ يقول :

نسيم غرناطة عليل لكنه يرى العليل
وروضها زهره بليل ورشفه ينقع الغليل
سقى بنجد ربا المصلى مبكراً روضه الغمام سقى بنجد ربا المصلى
تبسم الزهر في الكمام والروض بالحسن قد تجلى وجرى النهر عن حسام
ودوحها ظله ظليل يحسن في ربه المقيـل
والبرق والجو مستطيل يلعب بالصارم الصقيل
عقيلة تاجها السبيكة تطل بالمركب المنيف كأنها فوقه مليكة
كرسيها جنة العريف تطلع من عسجد سبيكة شمسها كلما تطيف
أبدعك الخالق الجميل يامنظراً كله جميل
قلبي إلى حسنه يميل وقلبنا قد صبا جميل^(١)

ونكتفى بما تقدم في الاقتباس من شعر الوزير ابن زمرك ، ويلوح لنا أنه قد
يتفوق في شاعريته على أستاذه ابن الخطيب ، وأن إنتاجه الشعري ولا سيما في الموشحات
قد يتفوق على إنتاج أستاذه ، على أنه لا ريب أنه يقصر عن مجارة ابن الخطيب ،
في كثير من نواحي التفكير والإنتاج الأخرى .

* * *

وظهر من أعلام تلك المدرسة الزاهرة ، إلى جانب ابن الخطيب وابن زمرك ، عدة
آخرون من الشعراء والكتاب ، منهم أبو سعيد فرج بن لب ؛ ولد سنة ٧٠١ هـ وتوفي
سنة ٧٨٢ هـ (١٣٨٠ م) ، وكان من أشهر أساتذة المدرسة النصرية (جامعة غرناطة) ،

(١) راجع ترجمة ابن زمرك ومي التي نقلها المقرئ عن ابن الأحرر ، في فتح الطيب ج ٤ ص ٢٨٧

وما بعدها ؛ وقد نقل إلينا المقرئ كثيراً من قصائده وشعره (ج ٤ ص ٢٩٦ — ٣٥٤)

وقد ولى خطابة الجامع الأعظم حيناً ، وكان فوق تطلعه فى الفقه شاعراً
مجيداً ، وقد ترك لنا مجموعة من الفتاوى المشهورة ، وطائفة من الشعر الجيد ، ومن
نظمه قوله :

خذوا للهوى من قلبى اليوم ما أبى فما زال قلبى كله للهوى رقاً
دعوا القلب فى لظى الوجد ناره فنار الهوى الكبرى وقلبي هو الأشقى
سلوا اليوم أهل الوجد ماذا به لقوا فكل الذى يلقون بعض الذى ألقى
فان كان عبد يسأل العتق سيداً فلا تبغى من مالكى فى الهوى عتقاً^(١)

ومنهم القاضى أبو محمد بن عطية بن يحيى الحارثى كاتب الإنشاء ، وكان
بارعاً فى النظم والنثر وخطيباً مفوهاً ، أصله من وادى آش وبها ولد سنة ٧٠٩هـ وتولى
القضاء بها . ووفد على غرناطة سنة ٧٥٦هـ ودرس على ابن الخطيب وغيره من أكابر
الشيوخ ، وتولى الكتابة السلطانية حيناً . ومن شعره قوله :

ألا أيها الليل البطيء الكواكب متى ينجلي صبح بليل المآرب
وحى متى أرعى النجوم مراقباً فمن طالع منها على إثر غارب
أحدث نفسى أن أرى الركب سائراً وذنبى يقصينى بأقصى المغرب
فلا فرت من نيل الأمانى بطائل ولا قمت فى حق الحبيب بواجب^(٢)

ومنهم الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل بن السلطان أبى الحجاج يوسف
(يوسف الثانى) المعروف بالأمير ابن الأحمر ، وقد سبقت الإشارة إليه . وكان
أديباً ضليعاً ، وقد تناول فى كتابه « نثر الجمان » ، أكابر الكتاب والشعراء فى
القرن الثامن الهجرى ، وأفاض بنوع خاص فى ذكر ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك ،
ونقل عنه المقرئ فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض ، معظم ما كتب عن
أدباء عصره ، ونقل عنه بالأخص كتابه عن ابن زمرك حسبما بينا فى موضعه ،
وعاش الأمير ابن الأحمر فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجرى . ومنهم
أبو عبد الله الشريشى تلميذ ابن الخطيب ومساعدته (سكرتيره) ، وكان مؤدباً
لأبناء السلطان ، وهو الذى تولى نقل كتاب الإحاطة لابن الخطيب من مسوداته ،

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦٧ و ٢٦٨ .

(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٣٦٢ — ٣٦٥ .

بتكليف منه لاشتغاله بشئون الوزارة ، فجاء في سنة مجلدات كبيرة ، وكان الشريشي في الوقت نفسه من علماء القرآن والسنة (١) .

ونستطيع أن نذكر إلى جانب هذه الجمهرة الممتازة من الشعراء والأدباء ، عدة من الفقهاء والمؤرخين ، منهم ابن فرحون برهان الدين ابراهيم بن علي اليعمرى الأندلسي المتوفى سنة ٧٩٩هـ (١٣٩٦م) ، وكان فقيهاً ومؤرخاً ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب «الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب» . وهوتراجم طبقات المالكية . وقد طبع مراراً بالمغرب ومصر ، وكتاب «طبقات علماء العرب» ومن نسخة بالاسكوريال (٢) .

ومنهم أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد الجذامي المالقي النباهي ؛ ولد بمالقة سنة ٧١٣هـ . ودرس على أشياخها . ثم وفد على غرناطة ، وتولى القضاء ، ثم عين كاتباً بالديوان . وانتهى إلى ولاية قضاء الجماعة بغرناطة . ونشبت بينه وبين ابن الخطيب خصومة شديدة ، وتبادلا الطعن والهجاء اللاذع في عدة رسائل ومقالات . ولما نكب ابن الخطيب وغادر الأندلس ، كان النباهي في مقدمة متهميه بالكفر والزندقة والساعين إلى هلاكه حسباً قدمنا . وتوفى في أواخر القرن الثامن . ومن آثاره الباقية كتاب «نزهة البصائر والأبصار في تاريخ الدولة النصرية» كتبه في سنة ٧٨١هـ (١٣٧٩م) ومنه نسخة في الاسكوريال ، وكتاب «المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» وهو تاريخ لقضاة الأندلس . وقد نشر أخيراً (٣) . ومنهم الفقيه أبو القاسم بن سلمون الكناني الغرناطي قاضي الجماعة بغرناطة المتوفى سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) ، ومن آثاره كتاب «العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من الوثائق والأحكام» (٤) ، وأبو عبد الله محمد بن علي بن اسحق الرندي المتوفى سنة ٧٩٢هـ

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٣٦٢

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ؛ وبروكلمان : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٣) وقد قام على نشره الاستاذ ابني بروئنسال ، ونشره بعنوان « تاريخ قضاة الاندلس » .

(الفاخرة سنة ١٩٤٨) . وراجع في ترجمة النباهي الكتاب المشار اليه (المقدمة) وأزهار الرياض ج ٢ ص ٥ — ٧ . وراجع بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٤) بروكلمان المصدر السابق ج ٢ ص ٣٦٤ .

(١٣٨٩م) . وكان من أقطاب التصوف وقد كتب كتاب « الرسائل الكبرى »
وغاية المواهب العلية بشرح الحكم العطائية » (١) .

وأما في ميدان العلوم فلم نعثر على ما يدل على ازدهارها في تلك الفترة ،
على أننا نستطيع أن نذكر أن ابن الخطيب كان إلى جانب أدبه الممتاز ، عالماً
بالطب والفلسفة ، وكان من تلاميذه الطبيب العالم ابن المهنا شارح الفية ابن سينا ،
وشرحه عليها من أقيم الشروح (٢) .

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) راجع فتح الطيب ج ٤ ص ٣٦٣ .

الفصل الرابع

العصر الأخير والآثار الباقية

ركود الحركة الفكرية • الشعراء الذين ظهوروا في هذا العصر • القاضي أبو بكر بن عاصم • ولده أبو يحيى • بعض الكتاب والأدباء • الشريف العقيلي وزير أبي عبد الله • ما حدث بعد سقوط غرناطة • القضاء على اللغة العربية • الأدب الموريسكي • محاولة إسبانيا القضاء على تراث الأندلس • إيداع الكتب العربية الباقية بقصر الاسكوريال • المجموعة العربية في الاسكوريال • حجبها عن أعين الباحثين • معجم الغزيري • انتفاع البحث الحديث بالآثار الأندلسية • معجم المستشرق ديرنبور • الفن في الأندلس • تطوره منذ القرن الرابع الهجري • ازدهاره أيام الناصر وابنه المستنصر • تقدمه أيام الطوائف • ركوده أيام المرابطين والموحدين • الفن في مملكة غرناطة • الموسيقى الأندلسية • الآثار الباقية •

بدأت مملكة غرناطة منذ أوائل القرن التاسع الهجري تستقبل عصرها الأخير ، وأخذ الاستقرار والسلام النسبي الذي تمتعت به حيناً في أواخر القرن الثامن ، وأوائل القرن التاسع ، يتصرم شيئاً فشيئاً ، وأخذت من ذلك الحين تواجه طائفة من الثورات والانقلابات الداخلية المتوالية ، وتواجه في الوقت نفسه طواع الصراع الأخير بينها وبين إسبانيا النصرانية ، التي أخذت منذ منتصف القرن التاسع (القرن الخامس عشر الميلادي) توثق أواصر اتحادها ، وتستجمع قواها لإنزال ضربتها الأخيرة بعدوتها القديمة الثالثة إسبانيا المسلمة .

وما كانت الحركة الفكرية لتزدهر في مثل هذا الأفق الكدر ؛ ولذا نجد في هذا العصر فراغاً ملحوظاً في ميادين التفكير والأدب في الأندلس المحتضرة ، ولا نعتز إلا بقلّة من المفكرين والأدباء ، الذين ظهوروا في تلك الفترة متفرقين متباعدين . وكان ممن ظهر في ميدان التفكير والأدب في تلك الفترة على بن عاصم شاعر السلطان يوسف الثاني وقد جمع له مجموعة شعرية في سنة ٥٧٩٣ (١٣٩١ م) (١) . والقاضي أبو بكر محمد بن عاصم القيسي الغرناطي ، وقد كان أعظم شخصية

ظهرت في هذا الميدان في مملكة غرناطة في أوائل القرن التاسع الهجري . ولد بغرناطة سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٨م) وتوفي بها سنة ٨٣٩هـ (١٤٢٦م) . وبرع في النحو والمنطق والبيان والفقه . وتولى الوزارة للسلطان يوسف الثاني سنة ٧٩٣هـ (١٣٩١م) . ثم ولى قضاء الجماعة بغرناطة ، وبرز في النثر والنظم ، ووضع عدة قصائد وأراجيز ، تناول فيها بعض مسائل من علم الأصول ، والقراءات والفرائض والنحو وغيرها . وله كتاب « تحفة الأحكام في نقط العقود والأحكام » ، وهو مختصر في الفقه ، وقد طبع بمصر وترجم إلى الفرنسية . وله أيضاً كتاب « حقائق الأزهار في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر » كتبه للسلطان يوسف . ويعرف بابن الخطيب الثاني لبراعته وجودة نثره ونظمه (١) .

وكذلك برع ولده العلامة الفقيه أبو يحيى بن عاصم في النثر والنظم . وتولى كأبيه منصب الكتابة والوزارة ، وكتب شرحاً على كتاب أبيه « تحفة الأحكام » وكتب رسالة فلسفية تاريخية عن أحوال غرناطة في عصره ، وما دهاها من آثار التفرق والفتنة ، ووصف فيها أساليب السياسة الإسبانية ، في الكيد والتفريق بين المسلمين ، أتمها « جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى » . ونقل إلينا منها المقرئ في أزهار الرياض نبذاً عديدة تشهد بمقدرة صاحبها ، وعميق تفكيره ورائق أسلوبه (٢) .

وأبو الحسن سلام بن عبد الله الباهلي الإشبيلي ، وقد كتب سنة ٨٣٩هـ (١٤٢٥) كتاب « الذخائر والأعلاق في أدب النفوس ومكارم الأخلاق » (٣) .

ومنذ منتصف القرن التاسع الهجري ، تضحل الحركة الفكرية في مملكة غرناطة شيئاً فشيئاً . ولا غرو فقد كانت غرناطة تخوض في تلك الفترة بالذات ، مرحلة الصراع الأخير ، وكانت الحرب الأهلية تمزق أوصالها ، وخطر الفناء الداهم يبدو لها قوياً في الأفق .

يبد أن شعاعاً أخيراً كان يبدو في تلك الظلمات المظلمة . فبرى في أواخر

(١) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ٨ و ٩ : بروكلمان : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦٤

(٢) راجع أزهار الرياض ، ج ١ ص ٥٠ وما بعدها ، و ص ١٦٧ وما بعدها .

(٣) بروكلمان : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥٩ وقد طبع الكتاب المشار إليه بالقاهرة

القرن التاسع ، في الوقت الذي كانت غرناطة تسلم فيه أنفاسها الأخيرة ، عدة من المفكرين والأدباء الذين يستحقون الذكر والتنويه .

وكان من هؤلاء القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن القاسم الإشبيلي المعروف بابن الأزرق ، أصله من وادي آش وتولى قضاء الجماعة بغرناطة . وكان بارعاً في الشعر والنظم والتاريخ . ومن آثاره كتاب في السياسة الملكية عنوانه : « الإبريز المسبوك في كيفية أدب الملوك » (سنة ٨٣٨ هـ) . وكتاب « بدائع السلك في طبائع الملك » لخص فيه محتويات مقدمة ابن خلدون وعلق عليها ، وأتى في موضوعها بزيادات جديدة ، وكتاب « روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام » . ولما ساءت الأحوال في غرناطة وأشرفت على السقوط ، عبر البحر إلى تلمسان ، ثم ارتحل إلى المشرق^(١) ، ونزل بالقاهرة في عصر السلطان الأشرف قايتباي ، واتصل به ، وحاول أن يستحث همته لتسيير جيش إلى الأندلس لاسترداد غرناطة^(٢) ، ومن شعره المؤثر حين نزل النصراري بمرج غرناطة :

مشوق بجنحات الأحبة مولع	تذكره نحمد وتغريه ألع
مواضعكم يا لائمين على الهوى	فلم يبق للسلوان في القلب موضع
ومن لي بقلب تلتظي فيه زفرة	ومن لي بجفن تنهمي منه أدمع
رويدك فأرقب للطائف موقعاً	وخل الذي من شره يتوقع
وصبراً فان الصبر خير تميمة	ويا فوز من قد كان للصبر يرجع
وبت واثقا باللفظ من خير راحم	فألطافه من لمحاة العين أسرع ^(٣)

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الحداد الشهير بالوادي آشي ، وهو أيضاً من أهل وادي آش ، وكان أديباً بارعاً وله تعليقات كثيرة على أدباء عصره . وقد غادر غرناطة قبيل سقوطها بقليل ونزل بتلمسان^(٤) .

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٧١ ، وج ٣

ص ٣١٨ و ٣١٩ . وقد طبع كتاب الإبريز المسبوك بالجزائر

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٠ .

(٣) أزهار الرياض ج ٣ ص ٣١٨ و ٣١٩ .

(٤) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٥٥ و ٧١ .

وأبو الحسن علي بن محمد القرشي البسطي ، وقد ولد في بسطة ودرس في غرناطة وتلمسان وتونس ، ورحل إلى المشرق وأدى فريضة الحج ، ثم استقر بعد عوده في غرناطة . ولما اشتد ضغط النصارى على غرناطة عبر البحر إلى تلمسان ، وعاش هناك حيناً آخر حتى توفي سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) . وقد برع البسطي في الرياضيات ووضع كتباً في الحساب والجبر (١) .

وأبو الحسن علي بن قاسم بن محمد التجيبي الرقاق . وقد درس في غرناطة وفاس وتولى الخطابة في غرناطة . ولما سقطت غرناطة في يد النصارى ، عبر البحر إلى المغرب ، وتوفي سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) . ومن آثاره كتاب « المنهج المنتخب إلى أصول المذهب » في الفقه المالكي (٢) .

على أن أعظم شخصية ظهرت في تلك الفترة القائمة في ميدان التفكير والأدب ، هي شخصية الوزير والكاتب الشاعر أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي المعروف بالشريف العقيلي ، وزير أبي عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس وكاتبه . وكان فوق تضلعه في الفقه ، إمام عصره في النثر والنظم ، وقد وصفه الوادي آشى بأنه « شاعر العصر ، مالك زمامي النظم والنثر » وبأنه « إمام هذه الصناعة ، وفارس حلبة القرباس والبراعة ، وواسطة عقد البلاغة والبراعة » . ووُصف أيضاً بحق بأنه خاتمة أديباء الأندلس .

ومن شعره يمدح السلطان أبي عبد الله حينما ولاه منصب الكتابة قوله :

أوجه سعدى انحط عنه اللثام	أم بدر ألقى فض عنه الغمام
كأنما أقبس نور البها	من وجه مولانا الإمام المصم
ابن أبي الحسن الأسرى الذي	قد كان للأملأك مسك الختام
ضرغام قد أنجب شهياً له	في صدق بأس ومضاء اعترام
دام له النصر الذي جاءه	والسيف من طلي أعاديه دام

ومنه قوله حينما نزل النصارى بمرج غرناطة :

بالطبل في كل يوم	وبالنفير نبراع
وليس من بعد هذا	وذاك إلا القسراع

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

يازب خيرك يرجو من هبض منه الذراع
لاتسبني صبراً منه لقلبي ادراع

ولما سقطت غرناطة في يد الإسبان ، عبر الشريف العقيلي البحر إلى المغرب مع سلطانه المنفى أبي عبد الله محمد ، وكان من أزوع ما كتب رسالة الإعتذار ، التي كتبها على لسان السلطان أبي عبد الله إلى سلطان المغرب ، وعنوانها «الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس» (١) . ومهد لها بعد الديباجة بقصيدته الرائعة التي مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم رعيما لما مثله يرعى من الذم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم

وقد سبق أن أتينا على ذكر هذه الرسالة المؤثرة الفريدة ، في موضعها ، وأوردنا طرفاً من قصيدة العقيلي ، ومن أقواله التي يخاطب بها السلطان أبو عبد الله سلطان فاس مستجيراً به ، ملتجئاً إلى حمايته ، معتذراً إليه عما بدر منه .

وعبر البحر إلى المغرب قبيل سقوط غرناطة وبعده جمهرة من العلماء والأدباء ، هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكرى (٢) . وقد آثروا مغادرة الوطن القديم على التعرض لفقد الحرية وامتهان الدين والكرامة القومية ، ومذلة العبودية في ظل الحكم الأجنبي المتعصب .

وكان سقوط غرناطة في يد إسبانيا النصرانية في سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) ، فذيراً بانهباء صرح الأمة الأندلسية القومية والاجتماعي ، وتبدد تراشها الفكرى والأدبى ، وكانت إسبانيا النصرانية ترى قبل كل شيء ، إلى القضاء على خواص الأمة المغلوبة الدينية والفكرية ، وعلى سائر الروابط الأدبية التي تربطها بماضيها المجيد ، وقد نجحت السياسة الإسبانية ، بدعمها طغيان الكنيسة وعسف ديوان التحقيق ، في تحقيق هذه الغاية إلى أبعد حد ، فلم يمحض على سقوط غرناطة نحو خمسين عاماً ،

(١) نشر المقرئ هذه الرسالة بأكملها في نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ — ٦٢٨ ؛ وفي أزهار

الرياض ج ١ ص ٧٢ — ١٠٢ .

(٢) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٧١ .

حتى استحوالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد ، يستبدل دينه القديم - الإسلام - بالنصرانية المفروضة ، ويتكلم القشتالية . وتغيب البقية الباقية من خصائصه القديمة ، شيئاً فشيئاً ، تحت ضغط التشريعات والإجراءات التعسفية المرهقة .

وكانت الأمة الأندلسية خلال هذا الإستشهاد المحزن ، الذي فرض عليها ، تحاول بكل وسيلة أن تستبق ما وسعت ، من تراثها الفكري والروحي القديم ، فكان الموريسكيون بالرغم من دخولهم في النصرانية . يتعلقون سرّاً بدينهم القديم ، وكثير منهم يؤدون شعائر الإسلام خفية ، وديوان التحقيق من ورائهم يطاردهم بمنتهى القسوة حسبما فصلنا . وكانوا يحافظون جهدهم على لغتهم العربية . ولكن السياسة الإسبانية المرهقة ، فطنت منذ الساعة الأولى إلى أهمية اللغة في تدعيم الروح القومية ، فعولت على سحق العربية وكل آثارها ، وصدر منذ أيام الإمبراطور شارلكان في سنة ١٥٢٦ ، أول قانون لتحريم التخاطب بالعربية على الموريسكيين . ولكنه لم يطبق بشدة . وكانت العربية ماتزال حتى ذلك الوقت لغة لأدب يختصر ، وكان يوجد ثمة بين الموريسكيين من ينظم بها الشعر ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى القصيدة التي أرسلها الموريسكيون إلى السلطان بايزيد الثاني يلتمسون فيها النجدة والغوث ، وهي قصيدة تنم بالرغم من ركاكتها عن روح شعرية مؤثرة . واستمر الموريسكيون عصرآ آخر يوجهون رسائلهم العربية إلى مسلمي المغرب . وكانت السياسة الإسبانية تضيق ذراعاً بالعربية ، وتزداد منها توجساً ، فعادت في عهد فيليب الثاني لتتخذ خطواتها الحاسمة في القضاء عليها . وصدر في سنة ١٥٦٦ قانون جديد صارم يحرم على الموريسكيين التخاطب بالعربية أو التعامل بها على نحو ما فصلنا ، وطبق القانون بمنتهى الشدة . وكانت العربية قد أخذت تغيب شيئاً فشيئاً في عمر العسف والاضطهاد ، فجاء القانون الجديد ضربة قاضية لمظاهرها الباقية . وفي هذا الوقت بالذات نشهد نفثات العربية الأخيرة لدى الموريسكيين في بعض قصائدهم السرية الثورية . وقد أشرنا فيما تقدم إلى قصيدة من هذا النوع كتبها من يدعى باسمه المسلم محمد بن داود في التجريض على الثورة الموريسكية الأخيرة في سنة ١٥٦٨

ولم تمص فترة قصيرة على تطبيق القانون الجديد بتحريم العربية نهائياً ، وفرض القشتالية كلغة للتخاطب والتعامل على الموريسكيين ، حتى اختفت المظاهر والآثار

الأخيرة للعربية . ومع ذلك فقد وجد الموريسكيون في القشتالية ذاتها متنفس تفكيرهم وأدبهم القديم ، فكانوا يكتبون العربية بحروف قشتالية ، ويكتبون سيرة نبهم القديم سرّاً باللغة القشتالية ، وينظمون بها المدائح النبوية والأساطير الدينية الإسلامية ، في قصائد تختلط فيها الألفاظ العربية بالقشتالية . وتوجد إلى اليوم بقية من هذا الأدب الموريسكى ، الذى تبدو فيه الروح العربية ، بالرغم من لغته وأساليبه القشتالية .

وقد نوه غير واحد من الكتاب الإسبان ، بما كان عليه الأدب الموريسكى بالرغم من ضعفه وضآلة شأنه ، من شاعرية ، وشعور بالجمال ، وخيال ممتع ، وذوق سليم . ويعلق الدون برونات على اختفاء الموريسكيين واختفاء أدبهم بعبارات شعرية يقول فيها : « إن السياسة الإسبانية لم تكتف بنفى الموريسكيين وما ترتب عليه من نضوب حقولنا ومصانعنا وخزائنا ، ولم يقتصر الأمر على انتصار التعصب ، وبربرية ديوان التحقيق بل تعداه إلى إختفاء الشعر ، وشعور الجمال الموريسكى ، والأدب السليم الذى رفع سمعة تاريخنا » .

ثم يقول : « إنه قد اختفى بطرد الموريسكيين ، الأدب المعطر ، والشاعرية الشعبية ، والخيال الممتع ، ومصدر الوحي الذى كانوا يمثلونه . وقد غاض باختفائهم من شعرنا هذا التلوين والفن والحيوية والإلهام والحماسة ، التى كانت خواصهم ، وحل محلها الظلام فى الأفق الأدبى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر » .

ويعرف الأدب الموريسكى فى الإسبانية « بالآلحميادو » Aljamiado . ويقول بعض النقاد : إنه وإن لم تكن للأدب الموريسكى ثروة من الجمال ، أو قيمة أدبية ذات شأن ، فإن له قيمة تاريخية واجتماعية فى الكشف عن التقاليد والعادات . وقد ترك الموريسكيون أثرهم فى اللغة الإسبانية وفى الشعر الإسباني ، وفى الأفكار الدينية وغيرها . وأبرز آثارهم الدينية هى الكتب التى حاولوا أن يعرضوا فيها تعاليم الإسلام ، وفيها تمزج المثل الإسلامية بالمثل النصرانية ، أو تصور فى صورتها ، وربما صور النبي العربى فى صور المسيح ، وجُل آثارهم الدينية تمتاز بهذا المزيج الغريب الذى أملتته ظروف العصر ، وروح المطاردة الدينية ، ورهبة ديوان التحقيق .

بيد أن الآثار الدينية التي خلفها الموريسكيون، نمت في معظمها، عن بغضهم للنصرانية ومثلها وتقاليدها (١).

وقد أبدت السياسة الإسبانية اهتماماً خاصاً بالقضاء على تراث الأندلس الفكرى، وبدأت بارتكاب جريمتها الشائنة في سنة ١٤٩٩م أغنى لأعوام قلائل من سقوط غرناطة، فجمعت الكتب العربية وأحرقت حسبما فصلنا من قبل (٢). ولم تبق معاول التعصب والجهالة إلا على بقية صغيرة من الكتب العربية، جمعت فيما بعد من مختلف الأنحاء، وأودعت أيام فيليب الثاني في قصر الإسكوريال الذى أنشأه هذا الملك على مقربة من مدريد، وحجبت عن كل باحث ومتطلع. وفي أوائل القرن السابع عشر، وقع حادث كان سبباً في مضاعفة المجموعة العربية الإسبانية. ذلك أن السفن الإسبانية استطاعت أن تأسر مركباً مغربية لمولاي زيدان ملك مراکش، مشحونة بالتحف، وبها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغيرها. وتقول الرواية الإسبانية إن هذا الحادث وقع في عصر فيليب الثالث، والظاهر أنه وقع نحو سنة ١٦٢٠م، حينما اشتد اضطراب العلاقات بين إسبانيا والمملكة الشريفة (٣). وقد حملت هذه المجموعة النفيسة من الكتب العربية إلى إسبانيا، وأودعت قصر الإسكوريال، إلى جانب بقية التراث الأندلسي، التي كانت مودعة فيه منذ أيام فيليب الثاني. وكانت مجموعة مولاي زيدان المغربية تحتوى بلا ريب على عدد كبير من الكتب الأندلسية التي كثر استنساخها، واقتناؤها بالمغرب، بعد سقوط غرناطة.

ولبت هذه المجموعة من المخطوطات العربية الأندلسية مودعة بمكتبة الإسكوريال الملكية حتى أواسط القرن السابع عشر، وكانت تبلغ يومئذ عدة آلاف، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها بإسبانيا. ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية

(١) راجع كتاب *Los Moriscos Españoles y su Expulsión* مؤلفه D. Pascual Boronat.

المجلد الثالث عشر من ٢٨٤ و ٣٨٦ و ٣٨٩.

(٢) راجع من ٢٢٩ من هذا الكتاب.

(٣) راجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي ج ٣ من ١٢٨؛ وراجع كسابي

« تراجم إسلامية » في ترجمة المقرئ من ٢٥٣.

الباقية من تراث الأندلس . ففي سنة ١٦٧١ شبت النار في الإسكوريال ، ولتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه سوى ألفين . وكانت الحكومة الإسبانية أثناء هذه العصور تحرص على إخفاء الآثار العربية عن كل قارئ وباحث ، كأنما كانت تخشى أن تتسرب روح التفكير الإسلامى إلى تفكير اسبانيا النصرانية ، بعد أن بذلت لقتل هذا الروح كل وسيلة ممكنة . وكان الكتاب الإسبان أنفسهم ، تحملهم نزعة الدين والجنس يعرضون عن كل بحث وتنقيب في هذه المصادر النفيسة ، التى تلقى أكبر ضوء على تاريخ اسبانيا المسلمة وحضارتها في العصور الوسطى ، ويكتفون في كتابة هذه المرحلة الطويلة الباهرة من تاريخ بلادهم ، بالرجوع إلى المصادر الإسبانية التى تفيض بالتحامل والتعصب . ولم تفق الحكومة الإسبانية من جمودها ، ولم تفكر في تنظيم تراث الأندلس الفكرى والتعريف به ، قبل أواسط القرن الثامن عشر ، فعندئذ انتدبت عالماً شرقياً يجمع بين الثقافتين الشرفية والغربية ، هو ميخائيل الغزيرى اللبىانى . الذى يعرف في الغرب باسم كازيرى Casiri وعهدت إليه بدراس الآثار العربية ، ووضع فهرس جامع لها . وكان الغزيرى بنشأته وثقافته الشرقية رجل المهمة ، فلبى دعوة الحكومة الإسبانية ، وعين في سنة ١٧٤٩ مديراً لمكتبة الإسكوريال ، وأنفق هنالك بضعة أعوام يدرس المخطوطات العربية ويحققها ، ثم بدأ بوضع فهرسه الجامع الذى عهد إليه بوضعه . وفي سنة ١٧٦٠ صدر الجزء الأول من هذا الفهرس باللاتينية بعنوان *Bibliotheca Arabico - Hispana Escorialensis* « المكتبة العربية الإسبانية في الإسكوريال » ، وصدره الغزيرى بمقدمة طويلة تحدث فيها عن قيمة هذه المخطوطات العربية وأهميتها ، وقسم هذه الآثار إلى عدة فنون ، وبدأ بكتب اللغة وعلومها ، ثم الشعر وأبوابه ، ثم الفلسفة وما يتعلق بها ، ثم الأخلاق فالطب والتاريخ الطبيعى ، فالرياضة والهندسة والفلك ، فالفقه وعلوم الدين والقرآن ، وهى تشمل أكبر مجموعة . ثم الآثار النصرانية . وتبلغ محتويات هذا الجزء الأول من الفهرس ١٦٢٨ مجلداً . وفي سنة ١٧٧٠ ظهر الجزء الثانى من الفهرس ، محتوياً على كتب الجغرافيا والتاريخ ومنتهياً برقم ١٨٥١ . وهو جملة ما أثبتته الغزيرى في فهرسه .

وكان أهم ما اتجهت إليه الأنظار بعد ظهور معجم الغزيرى ، هو التنقيب

في مجموعة الإسكوريال عن الروايات العربية المتعلقة بتاريخ اسبانيا المسلمة، وسياسة الحكومات الإسلامية، وخواص المجتمع الإسلامي، فعنى طائفة من الباحثين الإسبان في أواخر القرن الثامن عشر ومنهم أندريس وماسدى - يبحث تاريخ العلوم والآداب العربية، فأخرج أندريس كتابه عن «أصول الأدب» وأخرج ماسدى مؤلفه عن «تاريخ الحضارة الإسبانية» (١). ثم جاء العلامة كوندى فوضع لأول مرة تاريخاً لاسبانيا المسلمة (٢)، يعتمد فيه على الروايات العربية. وظهر هذا المؤلف بين سنتي ١٨١٠ و ١٨١٢. وبالرغم من أن مؤلف كوندى يحتوى على كثير من الأخطاء التاريخية، فقد كان أول مجهود غربي من نوعه يعرض للغرب قضية العرب في اسبانيا من الناحية العربية، وفيه يقف الغرب لأول مرة على وجهات النظر الأندلسية. وخواص النظم والسياسة الإسلامية. ويبدى كوندى في كثير من المواطن حماسة في الدفاع عن العرب؛ والإشادة بخلاصهم ومواقفهم وحضارتهم، ويصدر في بعض المواطن أشد أحكام على أمته وسياسة مواطنيه.

وأخذت المصادر العربية الأندلسية، تمثل من ذلك الحين في كل بحث يتعلق بتاريخ الأندلس. وكان العلامة المستشرق الهولندي رينهاردت دوزي أعظم ياحث غربي، توفّر على دراسة التاريخ الأندلسي، ودراسة مصادره العربية والغربية، وكتابه القيم «تاريخ المسلمين في اسبانيا حتى فتح المرابطين» (٣)، من أنفس ما كتب في هذا الباب. وتوالت بعد ذلك جهود الباحثين الغربيين في دراسة تاريخ اسبانيا المسلمة وكتابته. وصدرت بعد كتاب دوزي خلال القرن الماضي في هذا الموضوع، عدة كتب قيمة، إسبانية وإنجليزية وفرنسية وغيرها، يمتاز الكثير منها بدقة البحث وروح الإنصاف.

وقام المستشرق الفرنسي هارتفج ديرنبور في أواخر القرن الماضي، بدراسة جديدة للمجموعة الأندلسية بالإسكوريال، ووضع لها فهرساً جديداً بالفرنسية عنوانه، المخطوطات العربية في الإسكوريال «Les Manuscrits Arabes de l'Escurial»

(١) Historia crítica de España y de la cultura española

(٢) Historia de la Dominación de los Arabos en España

(٣) Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête de l'Andalousie
par les Almoravides

نحا فيه نحو الغزيرى فى ترتيبه وترقيمه ، وعثر على نحو مائة مخطوط أخرى لم ينبتها الغزيرى فى معجمه . بيد أنه لم يصدر من هذا الفهرس الحديد سوى جزئين يشتملان على كتب اللغة والبلاغة والشعر والأدب والفلسفة والأخلاق والسياسة . وأصدر الأستاذ لى بروفانسال بعد وفاة ديرنبور جزءاً ثالثاً من هذا الفهرس مشتملاً على كتب الدين والجغرافيا والتاريخ . ومازال هذا الفهرس الحديد لمجموعة الإسكوريال الأندلسية ، ينقصه استعراض كتب الطب والتاريخ الطبيعى والرياضة والفقه ، كما ينقصه ذكر الكتب التى غابت عن الغزيرى وعددها نحو مائة كتاب .

وقد كان التنقيب فى تراث الآثار الأندلسية ، والتعريف بها على هذا النحو ، فتحاً عظيماً فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الحضارة الإسلامية . فقد كان الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر ، لا يعرف من هذا التاريخ سوى ما تعرضه الرواية الإسبانية من شذور مغرضة ، وكانت مئات من الحقائق تغمرها حجب التعصب والتحامل ، فجاءت وثائق الإسكوريال تبديد هذه الحجب ، وتقدم الأدلة الساطعة على عظمة هذه الصفحة من تاريخ اسبانيا ، وتعرض لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة الأندلسية ، ومبلغ ما وصلت إليه من الإزدهار والتقدم .

— ٤ —

بقى أن نتحدث عن الفن فى الأندلس ، وسيكون حديثنا عن ذلك عاماً . ذلك أن الفن فى مملكة غرناطة آخر دول الإسلام بالأندلس ، لم يكن سوى المرحلة الأخيرة لسير الفن الأندلسى .

وقد نشأ الفن الإسلامى فى البداية نشأة متواضعة . وفزىد بالفن هنا معناه الدقيق الخالص . فالتصوير والنحت والنقش والزخرفة والموسيقى والغناء وما إليها ، مما ينعى فى عصرنا بالفنون الجميلة ، يقع تحت هذا المعنى . بيد أن هنالك معنى أوسع للفن . فقد يشمل فنون الهندسة والعمارة وما إليها ، ولا بأس من أن نعامله بهذا المعنى الأعم فى الوقت نفسه . وهذه النشأة المتواضعة للفن الإسلامى ترجع بالأخص إلى عوامل دينية . فقد نشأ الإسلام خصيم الوثنية ، يضطرم بغضاً لمظاهرها ورسومها ، وقد كان النحت والتصوير والنقوش الرمزية ، وقت ظهور الإسلام من مظاهر الوثنية ورسومها البارزة ، فكان الإسلام يحاصمها ويطاردها . ولم يشأ الإسلام أن يفسخ

٢٤ أندلس

صدره لهذه المظاهر والرسوم كما فعلت النصرانية . حيث اعتنقها وشماتها برعايتها ، وازدانت بها كنائسها وهياكلها العظيمة منذ القرن الأول للميلاد . ثم غدت فيما بعد مثاراً للخلاف الطائفي ، واعتبرت رمزاً لعبادة الصور ، وثارَت حولها تلك المناقشات والخصومات البيزنطية الشهيرة . بيد أن هذه الخصومة التي شهدها الإسلام في عصره الأول على التماثيل والصور ، رموز الوثنية ومظاهرها ، لم تلبث أن خفت وطأتها منذ القرن الثاني للهجرة . حينما قامت الإمبراطورية الإسلامية ، وأنشئت في أرجائها الهياكل الإسلامية العظيمة ، وبدأت الخلافة في عظمها الدنيوية ، وأخذت بقسطها من الترف والبهاء والبذخ . عندئذ عني الخلفاء بالفنون وازدانت قصورهم ومعاهدهم وحدائقهم ، بمظاهر الفن الرفيع ، واعتمد على الاقتباس بادية بدء من تراث الفنون الفارسية واليونانية والرومانية والبيزنطية بنوع خاص ، واقتبس عرب الأندلس أيضاً من تراث الفن القوطي . ولم يمض بعيد حتى امتزج الاقتباس بالابتكار ، وبدأ الفن الإسلامي في مظهره المستقلة . وبلغ منذ القرن الثالث للهجرة ، سواء في بغداد أو قرطبة مستوى رفيعاً من الروعة والبهاء . وبرع العرب في صنع الزخارف والنقوش والرسوم والصور الدقيقة ، وانتهوا في الموسيقى إلى ذروة الافتنان والبراعة ، وازدهر الفن الإسلامي في المشرق والمغرب أيما ازدهار .

وبلغ الفن الإسلامي في الأندلس أوج ازدهاره في القرن الرابع الهجري . ويجب أن نلاحظ أن عرب الأندلس كانوا أسبق الأمم الإسلامية إلى صنع التماثيل والصور ، وقد زينوا قصورهم ومعاهدهم منذ القرن الثالث ، بالتماثيل والصور والنقوش ، التي تمثل الحيوان والنبات والطير . أما التماثيل والصور البشرية ، فكانت تلبى نوعاً من التحريم العام . وفي عصر عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) خطا الفن الأندلسي خطوة أخرى ، فصنعت التماثيل والصور البشرية ، وزينت بها القصور والمعاهد الخلافية ، وكما أن عصر الناصر كان أعظم عصور الدولة الإسلامية في الأندلس ، فكذلك كان أعظم عصور الفن الأندلسي .

وقد كان قصر قرطبة الكبير حتى عهد الناصر ، موضع العناية والرعاية من جميع أمراء بني أمية ، وكان مجمع البهاء والرواء والفن . ولكن الناصر أثر أن ينشئ له ضاحية ملوكية جديدة ، تكون آية في الفخامة والبهاء ، فأنشأ مدينة الزهراء وقصورها

ومعاهدها الباهرة ، وأفاض عليها من ألوان البذخ والبهاء ، وبدائع الفن والزخرف ، آيات رائعات . وكانت نقوش الزهراء ورسومها وتمائيلها ، أبدع ما أخرج الفن الإسلامي في الأندلس . ولا يتسع المقام للإفاضة في وصف عظمة الزهراء وروائعها الفنية ، فنحيل القارئ إلى ما أورده صاحب نفح الطيب في هذا الشأن من مختلف الروايات والفصول (١) . ولكننا نخص بالذكر هنا مثلين زائعين من آيات الفن الباهر ، التي زينت بها قصور الزهراء ، فمن ذلك أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صنع الملوك الأوائل ، مطلى بالذهب ، وعيناه جوهرتان لهما ضوء ساطع ، قد أقيم على بحيرة قصر الناعورة ، يجوز الماء إلى مؤخره من قناة تحمل إليه الماء العذب ، من جبل قرطبة على حنايا معقودة ، فيدفع الماء إلى البحيرة في منظر رائع (٢) . ومن ذلك الحوض البديع الذي جلبه الناصر لاستحمامه ، وأقيم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس مما صنع بدار الصناعة بقرطبة : أسد إلى جانبه غزال ثم تمساح ، يقابلها ثعبان وعقاب وفيل ، وفي الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، كلها من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ، وتخرج الماء من أفواهها (٣) . وهنا أيضاً أعنى في عصر الناصر ، نرى لأول مرة فيما يظهر ، تماثيل الإنسان وصوره تمثل في الفن الأندلسي ، إلى جانب تماثيل الحيوان وصوره . فيروى أن الناصر أمر أن تنقش صورة جاريته وحظيته « الزهراء » على باب قصر الزهراء ، وهذه الجارية فيما يروى هي التي حملته على بناء الزهراء وتسميتها باسمها (٤) . وزينت أبهاء الزهراء بتماثيل وصور بشرية (٥) . فكانت ظاهرة فنية جديدة .

وبلغ الفن الأندلسي في عصر الناصر وابنه الحكيم المستنصر ، ذروة القوة والبهاء . وما زالت أسبانيا النصرانية تحتفظ ببعض تحف فنية نادرة من تراث ذلك العصر ، منها

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ و ٢٤٦ و ٢٦٤ — ٢٦٦ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ ؛

وراجع Murphy : *Mohamedan Empire in Spain*. p. 167—174

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ و ٢٩٢ Murphy ; *ibid*, p 292

وعلى الزهراء الشهير . وهو تمثال وعمل من البرونز زين جسمه بالنقوش والزخارف العربية البديعة . وتاج عمود من المرمر به زخارف دقيقة مذهشة ، وقد نقش عليه اسم الحكم المستنصر بالله واسم حاجبه . وكلاهما بمتحف قرطبة : وصندوق من العاج البديع نقش عليه صور فرسان وأسود آية في الدقة ، وذكر عليه اسم صاحبه وهو عبد الملك بن أبي عامر ولد الحاجب المنصور . ويحفظ بكنيسة بنبلوثة الكبرى (١) . وقد برع الأندلسيون في الصناعات الفنية الدقيقة ، مثل صناعة الخلى الفائقة والتحف العاجية والجلادية ، ونافسوا فيها صناعة بيزنطية (٢) . وكانت القصور والمعاهد العامة والمساجد الجامعة ، معرضاً لأبداع ما تمخض عنه الفن الرفيع يومئذ من صنوف الزخارف والرسوم والتحف الفنية . ومن ذلك أنه كان بجامع قرطبة تنور من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، وقد زين بصور ونقوش رائعة . يعجز عن وصفها القلم (٣) . وقد امتازت المدرسة المحافظة بالتفوق في نوع جديد من الزخارف ، يقوم على رسوم الشجر والأوراق والأغصان والأشكال المتماثلة المتكررة دون الصور التي تمثل الإنسان والحيوان ؛ ذلك لأنها كانت تقوم على احترام التقاليد الدينية القديمة . واشتهرت هذه المدرسة في العصور الوسطى ، وكان لها أثر عميق في تطور الفن الأوربي ، وما زالت تعرف بالتماذج العربية (الأرابيسك) (٤) .

وسطع الفن الأندلسي أيام الطوائف مدى حين ، ونشر ملوك الطوائف ولاسيما بنو عباد في إشبيلية ، وبنو ذي النون في طليطلة حولهم آيات من البذخ والترف والبهاء . وأغدقوا على قصورهم ومعاهدهم بدائع الفن وروائعه ، مما أفاض في وصفه المؤرخون والكتاب والشعراء . وكان بنو عباد في إشبيلية أعظم حماة للفنون والآداب . وكان قصر المأمون بن ذي النون ملك طليطلة آية رائعة من آيات الفن والبهاء ، وكان روضته الشهير الذي بنى وسط بحيرة القصر ، من الزجاج الملون المزين بالنقوش الذهبية ، مستقي خصباً لخيال الشعراء ، وكانت حافة البحيرة مزدانة بصفوف من ماثيل الاسود

Lévy - Provençal : L'Espagne Musulmane au Xème Siècle pl. XXII, (١)
XXIII, XXXIV.

Lévy-Provençal, ibid, p. 189 (٢)

(٣) نفع الطيب ٣ ص ٢٤٥ .

Murphy ; ibid, p. 291 - Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien (٤)

التي تقذف الماء من أفواهها ، وهي لاتزال تقذف الماء ولا تفتر ، وتنظم لآلى الحباب بعد ما نثر^(١) . وكان للمقتدر بن هود ملك سرقسطة في قصره ، مجلس رائع زينت جدرانها بالنقوش والتحف الذهبية البديعة^(٢) . ولم يكن هذا الهوى الفنى قاصراً على الأمراء والكبراء ، فقد روى لنا المقرئ أنه كان ببعض حمامات إشبيلية تمثال بديع الصنع ، قال فيه الشاعر :

ودمية مرمر تزهر بجيـد تنهى في التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا ولا أملت بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجر ولكن تتيمننا بالحاظ مراض

وفي عهد المرابطين والموحدين خبت دولة الفن الإسلامي في الأندلس . ذلك لأن أولئك الغزاة البربر ، الذين كانوا يضطرمون بروح دينية محافظة ، لم يقدرُوا روعة الفن الرفيع وسحره ، ولم تفسح لهم الثورات والحروب الداخلية ، مجالاً لرعاية الفنون والآداب .

وازدهرت الفنون والآداب كرة أخرى في مملكة غرناطة . وكان بنو الأحمر حماة كرماء للفنون . ونلاحظ أن الفن الأندلسي بلغ في هذا العصر ذروة التحرر والافتنان أيضاً ، وتوسع الفنانون المسلمون في تصميم المناظر والرسوم . ولم يقتصر الأمر على الصور والرسوم والتماثيل المفردة ، بل تعداه إلى المناظر المصورة ، وإلى المجموعات المنحوتة . وما زالت حمراء غرناطة ، وما زالت أبهاؤها ومجالسها الرائعة ، تنبئ عما انتهت إليه آخر دول الإسلام في الأندلس من البذخ والبهاء ، وعما بلغه الفن الأندلسي في هذه المرحلة الأخيرة من حياة الإسلام في اسبانيا ، من الدقة والافتنان . وسوف يبقى قصر الحمراء ، وما يحتويه من النقوش والزخارف والصور الرائعة ، رمزاً خالداً لعظمة الفن الإسلامي في الأندلس . وفي الحمراء : في قاعة الحكم ، وفي جهو الأسود ، وفي قاعة السفراء ، وفي غيرها من الأبهاء المنيفة ، زينت الجدران بمجموعات كاملة من المناظر المصورة ، ومن ذلك صور لمجلس الحكم ، وصور تمثل موقعة حربية ، وكوكبة من الفرسان ، ومناظر فروسية وصيد وغيرها .

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٧ و ٢٨٢ ؛ وقلائد العيان للفتح بن خاقان ص ١٩٤ و ١٩٥ .

(٢) نفع الطيب ج ١

نعرض بعد ذلك لناحية أخرى من الفن الإسلامي في الأندلس هي الموسيقى . وقد كان للموسيقى بين فنون الحضارة الإسلامية أيما شأن ، وكان ازدهارها بالأخص في بغداد وقرطبة ، حيث بلغت حضارة الإسلام ذروة العظمة والنضج ، وكان ازدهارها في عصر مبكر جداً منذ أواخر القرن الثاني للهجرة ؛ في ظل الدولة العباسية الفتية . وفي هذا الوقت نفسه انتقل إلى الأندلس قبس من هذه النهضة المشرقية ، فنزح زرياب الموسيقى غلام الموصليين^(١) أساطين الموسيقى والغناء لهذا العهد ، إلى الأندلس في عصر عبد الرحمن بن عبد الحكم (أوائل القرن الثالث) ، فاستقبله بنفسه وبالغ في إكرامه ، وأغدق عليه العطف والبذل . وكان زرياب موسيقياً عظيماً ومغنياً ساحراً ، فذاع فنه في الأندلس والمغرب ، وأنشأ بالأندلس مدرسة موسيقية وغنائية باهرة ، استطال نشاطها وأثرها حتى عصر الطوائف ، وازدهرت أيام الطوائف في إشبيلية في ظل بني عباد بنوع خاص^(٢) . وسطع في مملكة غرناطة قبس من هذه النهضة ، واشتهرت الموسيقى الأندلسية في غرب أوروبا في العصور الوسطى ، وكان لها أثرها في تطور الموسيقى الغربية . وبرع المسلمون في العزف على كثير من الآلات الموسيقية المعروفة حتى اليوم ، واخترعوا الكثير منها ولاسيما « القيثارة » التي كانوا يعتبرونها أجمل الآلات الموسيقية . وكان للموسيقى الأندلسية أثر كبير في تطور الموسيقى الإيطالية القديمة ، ولا زالت آثار من الأوضاع والتقاليد الموسيقية الأندلسية تمثل في الموسيقى الإسبانية الحديثة^(٣) .

وقد كانت الأمة الأندلسية أمة مرهفة الشعور والحس ، تعشق الفن الجميل ، وتحب الحياة الناعمة المرفقة ، وتجنح إلى المرح والطرب . وقد وصف لنا ابن الخطيب لمحة من هذا الترف ، الذي كان عنواناً لحياة الأمة الأندلسية في عصورها الأخيرة ، وذكر لنا كيف كان الشعب يعشق الغناء والموسيقى ، وكيف كانت غرناطة تموج بالمقاهي الغنائية التي يؤمها الشعب من سائر الطبقات . وقد اشتهر الرقص الأندلسي بجماله وافتنانه في مجتمعات العصور الوسطى ، وما زال شعب غرناطة المرح الطروب مقبلاً خلال كفاحه الطويل ، على حياته المرفقة الناعمة ، حتى أصبح البدو على الأبواب .

(١) إبراهيم الموصلي وولده اسحاق وولده حماد .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٥٧ ؛ ونفع الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها .

(٣) Murphy, ibid; p. 296, Aschbach, ibid, B. II. p. 353

وللأندلسيين آثار قيمة في الموسيقى العلمية والعمالية . وفي مكتبة الإسكوريال مخطوط عربي نفيس عن الموسيقى وعناصرها ومبادئها وأوضاعها وأنغامها ، وكذلك عن آلات الموسيقى المختلفة وأشكالها وتراكيبها (١) . وهو دليل على ما بلغه المسلمون في هذا الفن من الرسوخ والابتكار .

وقد يرى بعض الباحثين الغربيين أن الأندلسيين تلقوا معظم تراثهم الفني ، عن الفن النصراني . وفي هذا الرأي مبالغة ، فقد اقتبس الأندلسيون من فنون القوط والفرنج والبيزنطيين والبنادقة ، ولكنهم كانوا مبتكرين أيضاً ، وكانوا منشئين لفن إسلامي محض ، بما أسبغوه عليه من ألوان الافتنان الرائع التي اختصوا بها . وتميز بها تراثهم الفني مدى الأحقاب .

* * *

وكما أبقى لنا الزمن على بقية من تراث الأندلس الفكري ، مازالت تحتفظ بها اسبانيا النصرانية ، فكذلك مازالت تقوم إلى يومنا في اسبانيا طائفة من الآثار الأندلسية الخالدة ، مثل جامع قرطبة الذي مازال رغم تحويله إلى كنيسة جامعة ، يعتبر من أعظم نماذج العمارة الإسلامية الإسبانية ، وقصر إشبيلية ، وجرأ غرناطة التي أتينا فيها تقدم على تاريخها ووصفها ، والتي مازالت أبراجها وأبهاؤها الملوكية الصامته ، تعرض لنا كثيراً من روعتها القديمة . وكذلك يوجد إلى اليوم في مختلف أنحاء الأندلس وقواعدها الناهبة ، كثير من الأطلال الأندلسية الدارسة ، من صروح وقناطر وغيرها . وكلها تشهد بما كان لهذا الشعب النبيل الذكي . من قدم راسخ في ميدان العلوم والفنون ، وكلها تبدو بما يتجلى فيها من روعة أثرية ، ومن براعة علمية وفنية ، عنواناً لحضارة عظيمة .

(١) معجم الفزيري (Casiri) ج ١ ص ٢٧٤ .

obeikandi.com

ثبت المراجع

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ (طبع القاهرة) .
أزهار الرياض في أخبار عياض للمقرئ (القاهرة) .
تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر (بولاق) .
الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة) .
اللمحة البدوية في تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب (القاهرة) .
الحلل الموشية في الأخبار المراكشية لابن الخطيب .
أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر المنشور بعناية المستشرق مولر
(جوتنجن سنة ١٨٦٣) .
تاريخ قضاة الأندلس لأبي الحسن النباهي المنشور بعناية الأستاذ ليفي
بروفنسال (القاهرة) .
قلائد العقيان للفتح بن خاقان .
صلة الصلة لأبي جعفر بن الزبير المنشور بعناية الأستاذ ليفي بروفنسال
تكلمة الصلة لابن الأبار (المكتبة الأندلسية) .
الحلة السيرة لابن الأبار المنشور بعناية العلامة دوزي (ليدن سنة ١٨٥١) .
الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لمؤلف مجهول (الجزائر سنة ١٩٢٠) .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي (القاهرة) .
المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن دينار (تونس) .
الحلاصة النقية في أمراء إفريقية لأبي عبد الله الباجي المسعودي (تونس) .
السلوك في دول الملوكة للمقرئ (القاهرة) .
صبح الأعشى للقلقشندي (القاهرة) .
فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (بولاق) .
تاريخ ابن إياس المسمى بدائع الزهور (بولاق) .
الروض المعطار لأبي عبد الله الحميري المنشور بعناية الأستاذ ليفي بروفنسال (القاهرة) .
معجم البلدان لياقوت الحموي (القاهرة) .
رحلة ابن بطوطة (القاهرة) .

* * *

- R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête des Almoravides (Lévy-Provençal 1932).
- » : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge.
- Gayangos : Mohamedan Dynasties in Spain.
- (وهو ترجمة التسم التاريخي من كتاب تفح الطيب مع تعليقات وهوامش)
- Condé : Historia de la Dominaçion de los Arabos in Espana.
- W. Prescott : History of Ferdinand and Isabella the Catholic (London, Sonnenschein).
- » : History of the Reign of Philip the Second (London 1855).
- Scott : The Moorish Empire in Europe.
- H. Ch. Lea : History of the Inquisition in Spain.
- » » : History of the Moriscos of Spain; their Conversion and Expulsion (London 1901).
- Don S. A. Llorente : Histoire Critique de l'Inquisition d'Espagne.
- Owen Jones & Jules Goury : The Alhambra (London 1844).
- W. Irving : A chronicle of the Conquest of Granada (Everyman's)
- Lévy-Provençal : L'Espagne Musulman au Xème Siècle.
- Murphy : Mohamedan Empire in Spain.
- Lane-Poole : The Barbary Corsairs.
- » » : The Moors in Spain.
- Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien.
- » : Geschichte Spanien's zur Zeit der Herrschaft der Almoraviden und Almohaden.
- C. Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur.
- M. Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis.
- Lafuente Alcantra : Historia di Granada.
- Boronat, Don P. : Los Moriscos Españoles y su Expulsión.
- Gomez-Moreno : El Arte en Espana.

فهرست

صفحة

٣

مقدمة

الكتاب الأول

مملكة غرناطة

منذ قيامها حتى عصر السلطان أبي الحسن

الفصل الأول : الأندلس الغاربة ١٠

الفصل الثاني : نشأة مملكة غرناطة وقيام الدولة النصرانية ١٨

الفصل الثالث : طوائف الأمة الأندلسية في عصر الانحلال ٤١

الفصل الرابع : طبيعة الصراع بين الأندلس واسبانيا النصرانية ٥٠

الفصل الخامس : تاريخ اسبانيا النصرانية منذ أوائل القرن الحادى عشر

حتى قيام مملكة غرناطة ٦٠

الفصل السادس : مملكة غرناطة عقب وفاة ابن الأحمر وعصر الجهاد

المشترك بين بني الأحمر وبني مرين ٧٠

الفصل السابع : مملكة غرناطة في النصف الأول من القرن الثامن الهجرى

..... ١٠٤

الفصل التاسع : تاريخ اسبانيا النصرانية منذ قيام مملكة غرناطة

حتى اتحاد مملكتى قشتالة وأراجون ١٢٦

الكتاب الثانى

نهاية دولة الإسلام فى الأندلس

الفصل الأول : الأندلس على شفا المنحدر ١٤٤

صفحة

١٦٢		الفصل الثاني : بداية النهاية
١٧٣		الفصل الثالث : الصراع الأخير
١٩٧		الفصل الرابع : ختام المأساة

الكتاب الثالث

مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين

٢٢٤		الفصل الأول : بدء التحول في حياة المغلوب
		الفصل الثاني : ديوان التحقيق الإسباني ومهمته في إبادة الأمة
٢٣٦		الأندلسية
٢٥٥		الفصل الثالث : ذروة الإضطهاد وثورة الموريسكيين
		الفصل الرابع : توجس السياسة الإسبانية وعصر الغارات البحرية
٢٧٦		الإسلامية
٢٨٨		الفصل الخامس : مأساة النفي
٣٠٢		الفصل السادس : تأملات وتعليقات عن آثار المأساة

الكتاب الرابع

نظم الحكم

والحياة الاجتماعية والفكرية في مملكة غرناطة

٣١٦		الفصل الأول : نظم الحكم في مملكة غرناطة وخواصها الاجتماعية
٣٣٣		الفصل الثاني : الحركة الفكرية في مراحلها الأولى
٣٤٩		الفصل الثالث : عهد النضج والازدهار
٣٦٧		الفصل الرابع : العصر الأخير والآثار الباقية

فهرست الخرائط والصور

صفحة

- ١ — خريطة اسبانيا في القرن الثالث عشر ٢١
- ٢ — خريطة اسبانيا في القرن الرابع عشر ٦٣
- ٣ — خريطة مواقع حرب غرناطة الأخيرة ١٧٧
- * * *
- ١ — فرديناند الكاثوليكي ملك أراجون ١٤٠
- ٢ — إيزابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة ١٤١
- ٣ — من زخارف بهو المدخل الرئيسي بقصر الحمراء ٢١١
- ٤ — فناء البركة وبرج قمارش ٢١٣
- ٥ — بهو الأسود أو كورة السباع ٢١٥
- ٦ — البهو الرئيسي بقصر جنة العريف ٢١٥
- ٧ — بهو بنى سراج ٢١٧
- ٨ — الإمبراطور شارلكان ٢٥٨
- ٩ — الملك فيليب الثاني ٢٦٣
- ١٠ — الملك فيليب الثالث ٢٩٣

فهرس أبجدى للأعلام

(١)

- أبنة ؛ ١٣ و ٢٠ و ٢٤ و ٦٦ و ٧٦
 إبراهيم بن سهل الاشبيلي ؛ ١٢ و ٣٢
 و ٣٣٥
 ابن أبى أصيبعة ؛ ٣٤٠
 ابن الأبار ؛ ٢٦ و ٦٩ و ٣٣٤ و ٣٣٦
 و ٣٣٧ و ٣٣٩
 ابن الأزرق ؛ الاشبيهي ؛ ٣٦٩
 ابن البيطار ؛ ٣٣٤ و ٣٤٠
 ابن الجياب ؛ ٩٦ و ٣٢٣ و ٣٤٢ و ٣٤٥
 ابن الجيان المرسى ؛ ٣٣٦
 ابن الحكيم ؛ ٨٥ و ٨٧ و ٣٢٣ و ٣٤٢
 و ٣٤٤
 ابن الخطيب ، لسان الدين ؛ ١٥ و ١٦
 و ٤٨ و ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٥
 و ١٠٦ - ١١٢ و ١٣١ و ١٤٥
 و ٣٢٣ و ٣٢٩ و ٣٣٠ و ٣٤٢
 و ٣٤٣ و ٣٤٨ و ٣٤٩ و ٣٥١
 - ٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٤ و ٣٦٥
 و ٣٦٦
 ابن الزبير ، أبو جعفر ؛ ٣١٧
 ابن الشط ؛ ٣٤٢
 ابن الطفيل ؛ ٣١٩
 ابن الفخار ؛ ٣٤٧
 ابن الفرضي ؛ ٣٢٠
 ابن إياس ؛ ٦٥ و ١٦٦
 ابن باجه ؛ ٣١٨
 ابن بدرون ؛ ٣٢٠
 ابن بسام ؛ ٣١٨
 ابن بشكوال ؛ ٣٢٠
 ابن بطوطة ؛ ١٠٠ و ١٠١ و ٣٥٠
 ابن ثومرت ، المهدي ؛ ٢٠ و ٣١٨
 ابن جابر الضرير ؛ ٣٤٦
 ابن جزى ، أبو القاسم ؛ ٣٤٧
 ابن جزى ، أبو عبد الله ؛ ٣٥٠
 ابن حبيب الاشبيلي ؛ ٣٢٠
 ابن حريق ؛ ٣٣٤
 ابن حزم ؛ ٣١٧
 ابن حفصون ؛ ٤٧ و ٤٨
 ابن حمدون الحميري ؛ ٣٣٤
 ابن حيان ؛ ١١ و ٣١٧
 ابن خاتمة ؛ ٣٤٤ و ٣٥١
 ابن خلدون ؛ ٨١ و ٩١ و ١٠٥ و ١٠٧
 و ١٠٨ و ١٣١ و ١٤٦ و ٣٥٤
 ابن خميس ؛ ٣٤٤
 ابن دينار ؛ ٢٩٨
 ابن رشد ؛ ٤٧ و ٣١٩ و ٣٢٠
 ابن زمرك ؛ ١١٢ و ١١٤ و ٣٤٢
 و ٣٦١ و ٣٦٢ و ٣٦٤
 ابن زهر ، عبد الملك ؛ ٣١٩ و ٣٤٠
 ابن زيدون ؛ ٣١٧
 ابن سعيد الاندلسي ؛ ٣٣٤ و ٣٣٩
 ابن سلبطور ؛ ٣٥٠
 ابن عبدون ؛ ٣١٧
 ابن عبو ، مولاى عبد الله ؛ ٢٧٠ و ٢٧١
 و ٢٧٣ - ٢٧٥
 ابن عربى ، يحيى الدين ؛ ٣٣٤ و ٣٣٩
 ابن فرحون القرشي ؛ ٣٤٧
 ابن فرحون ، برهان الدين ؛ ٣٦٥
 ابن قزمان ؛ ٣١٨
 ابن لب ؛ ٣٦٣ و ٣٦٤
 ابن ليون ؛ ٣٤٨
 ابن مرج الكحل ؛ ٣٥٠
 ابن مردنيش ؛ ٤٨ و ٥٦ و ٥٧ و ١٥١
 و ٣٣٠ و ٣٣٧

أبو سالم المريني؛ ٨٦ و ١٠٦ و ١٠٧
 و ١٤٥ و ٣٥٣ و ٣٦١
 أبو سعيد المريني؛ ٩١ و ٩٤ و ١١٦
 أبو عبد الله الشيخ الوطاسي؛ ١٩٩
 أبو عبد الله محمد، السلطان؛ ١٤٩
 — ١٥١ و ١٥٥ — ١٥٨ و ١٦١
 و ١٦٢ و ١٦٥ و ١٦٧ و ١٧١
 و ١٧٢ و ١٧٤ — ١٧٦ و ١٨١
 و ١٨٣ و ١٨٤ و ١٨٧ و ١٨٩
 و ١٩١ — ١٩٣ و ١٩٩ و ٢٠٢
 — ٢٠٧ و ٢٢٥ و ٣٣٠ و ٣٧٠
 أبو عنان، السلطان؛ ١٠٥ و ١٠٦
 و ٣٥٠ و ٣٥٢
 أبو فارس الحفصي؛ ١١٨ و ١١٩
 أبو مالك؛ ٩٤ و ٩٦
 أبو يحيى بن عاصم؛ ٣٦٨
 أبو يعقوب، السلطان؛ ٨٢ و ٨٣—٨٦
 أبو يوسف، المنصور؛ ٥٧ و ٧٢—٧٦
 و ٨٠ — ٨٣ و ١٢٧
 أبو يوسف يعقوب؛ ٣٤ و ٣٨ و ٧٢
 و ٧٧ و ٣١٩
 أحمد الوطاسي، السلطان؛ ٢٠٧
 أراجون (الثغر الأعلى)؛ ١١ و ٤٣
 و ٤٧ و ٥٤ و ٦٠ — ٦٢ و ٦٥
 و ٦٨ و ١١٥ و ١٢١ و ١٣٠
 و ١٣٧ و ١٣٨
 أرجونة؛ ٢٧ و ٢٨ و ٣١ و ٦٧
 أردونو؛ ٥٣ و ٥٦
 أرشدونة؛ ١٩ و ١٢٠
 أريولة؛ ١٣ و ٣٠ و ٣٣٦
 أسبانيا ٤٥ و ٥٠ — ٥٥ و ٥٨ — ٦٢
 و ٩٦ و ٩٩ و ١٤٠ و ١٤٢ و ١٤٦
 — ١٤٩ و ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٩١
 و ٢٩٩ و ٣٠٢ و ٣٠٣ و ٣٠٥
 و ٣٠٧ و ٣١٤
 اسبينوسا؛ ٢٦٤

أبو المهنا؛ ٣٦٦
 ابن هود؛ ٢٠ و ٢٣ — ٢٥ و ٢٧ — ٣٠
 و ٣٣٣
 أبو البقاء الرندي؛ ٣٦ و ٣٧ و ٣٨
 و ٣٣٧
 أبو الحسن الباهلي؛ ٣٦٨
 أبو الحسن البسطي؛ ٣٧٠
 أبو الحسن القراري؛ ٣٤٧
 أبو الحسن المريني، السلطان؛ ٩٤—٩٨
 و ١٠٠ و ١٠٢ و ١٣٠
 أبو الحسن النباهي؛ ٣٥٦ و ٣٦٥
 أبو الحسن النصري، السلطان؛ ١٤٧
 و ١٤٨ و ١٥٠ — ١٥٤ و ١٥٦
 و ٢٠٥
 أبو العباس بن الرومية؛ ٣٤٠
 أبو القاسم الحسيني؛ ٣٥٠
 أبو القاسم بن سلمون؛ ٣٦٥
 أبو القاسم عبد الملك؛ ١٨٣ و ١٨٤
 و ١٨٥
 أبو القاسم العزفي؛ ٣٦ و ٨٦
 أبو النعيم رضوان؛ ٩٣ و ٩٥ و ٩٦
 و ١٠٥ و ١٠٦ و ٣٢٣ و ٣٥٢
 أبو الوليد اسماعيل، السلطان؛ ٨٩
 و ٩٠ و ٩١ و ٩٢ و ٩٣ و ٢١٠
 أبو الوليد اسماعيل، الأمير؛ ٣٤٢
 و ٣٥٤ و ٣٦٤
 أبو بكر الطرطوشي؛ ٣١٨
 أبو بكر بن عاصم؛ ٣٦٧
 أبو بكر بن عبد الملك بن زهر؛ ٣٤٠
 أبو ثابت المريني؛ ٨٦ و ٨٧
 أبو جعفر العذري؛ ٣٦٠
 أبو جميل زيان، راجع زيان
 أبو حيان الغرناطي؛ ٣٤٥
 أبو زكريا الاشبيلي؛ ٣٢٦
 أبو زكريا الحفصي؛ ٢٦ و ٢٨ و ٦٩
 و ٣٣٦

- أستجة ؟ ١٣٤ و ٣٥ و ٧٦
اسماعيل ، السلطان ؟ ١٠٦ و ١٠٨
اشبيلية ؟ ١٣ و ١٤ و ٢٠ و ٢٩ و ٣٢
و ٣٣ و ٤٢ و ٤٧ و ٦٦ و ٦٧
و ٧٧ و ٧٨ و ١٠٠ و ١٠٨ و ١٢٨
و ١٤٨ و ٢٤١ و ٢٤٩ و ٣٢٠
و ٣٢١
الأرك ؟ ١٢ و ٥١ و ٥٣ و ٦٢
الأسبنتارية ؟ ٥٤ و ٥٥
الاسكندرية ؟ ١١٢ و ٣٢٨
الاسكوريال ؟ ٣٤٦ و ٣٥٩ و ٣٦٥
و ٣٦٧ و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٧٦
و ٣٧٧ و ٣٨٣
الأشرف شعبان ؟ ١١٢
الأشرف قايتباي ؟ ١٦٣ و ١٦٦ و ١٦٧
و ٣٦٩
الأيسر ، السلطان ١١٧ - ١٢١
و ١٤٩
البدول ؟ ١٧٥ و ١٩٣
البرنية ، جبال ؟ ٥٧ و ٦٠ و ٦١
و ١٠٦ و ٣١٣
البشرات ؟ ١٧٥ و ١٧٩ و ١٨٣ و ٢٠٢
و ٢٦٥ و ٢٦٨ و ٢٦٩
البلوى ؟ ٣٤٨
البندقية ؟ ٢٨١ و ٣٢٨
البيازين ، ربض ؟ ١٦ و ٩٦ و ١٥٧
و ١٦٠ و ١٦١ و ٢٦٥ و ٢٦٧
و ٣٦١
البيرة ؟ ١٤ و ٤٢ و ٥٣ و ٦٨ و ٩١
و ٩٢ و ١٠٩
الجزائر الشرقية ؟ ٦٨ و ١٣٦ و ٢٨٤
الجزيرة الخضراء ؟ ٧٥ و ٧٧ و ٨١ و ٨٤
و ٨٨ و ٨٩ و ٩١ و ٩٤ و ٩٧
و ٩٩ و ١٣٠ و ١٥٩ و ٣٢٥
الحاجب المنصور ؟ ٥٣
الحامه ٤١ و ١٥٣ و ١٦٢
- الحكم بن هشام ؟ ٤٧
الحكم المنتصر ؟ ٣١٧ و ٣٧٩
الحمراء ، قصر ؟ ١٦ و ٣٩ و ١٠١
و ١٠٢ و ١٠٦ و ١١٢ و ١١٣
و ١٢١ و ١٥٢ و ١٥٥ و ١٧٤
و ١٨٢ و ١٨٨ و ١٩٠ و ١٩١
و ٢٠٨ - ٢٢٠ و ٢٦٥ و ٣٢٢
و ٣٢٥ و ٣٦٢ و ٣٨١ و ٣٨٣
الحميدى ؟ ٣١٧
الداوية ؟ ٥٤ و ٥٥
الزغل ، أبو عبد الله محمد ؟ ١٤٧
و ١٤٨ و ١٥٤ - ١٥٨ و ١٦١
- ١٦٣ و ١٦٧ و ١٧١ و ١٧٤
و ١٧٦ و ١٩٩ و ٢٠٥
الزلاقة ؟ ١٢ و ٥١ و ٥٣ و ٦٢ و ٧٦
و ١٠٢
الزهراء ؟ ٣٧٩ و ٣٨٠
السيد أبو عبد الله ؟ ٣٢ و ٦٧
السيد الكمبيادور ؟ ٥٦
الشريف العقيلي ، محمد بن عبد الله ؟
٢٠٠ و ٣٤٢ و ٣٧٠ و ٣٧١
الشيخ ، أبو عبد الله ؟ ١٩٩
الشيخ ، المأمون ؟ ٢٨٧
الصالح ، الملك ؟ ٩٨
الصخرة ؟ ١١٥ و ١٤٨
العقاب ؟ ١٢ و ٥١ و ٥٧ و ٦٢ و ٧٢
و ٧٦ و ٩٧
الغزالي ؟ ٣١٨
الغزيرى ؟ ٣٧٥ و ٣٧٧
الفتح بن خاقان ؟ ٣١٧ و ٣١٨
الفرنثيره ؟ ٣١ و ٥٧ و ٧٦
الفونسو الأول (المحارب) ؟ ٤٦ و ٥٤
و ٦١
الفونسو العاشر ، الحكيم ؟ ٣٠ و ٣١
و ٣٥ و ٤٢ و ٥٧ و ٧١ و ٨٠
و ٨١ و ١٢٧ و ١٥٩

و ١٦٧ و ١٧٠ و ١٩٨ و ٢٠٥
و ٢٦٧ و ٢٨٢ و ٢٩٥ و ٣١٣
و ٣١٧ و ٣٢٦ و ٣٢٩
انفاط : ١٥٤ و ١٥٨ و ١٥٩
انوسان الربع (البابا) : ٤٣ و ٤٤
و ٤٥
أوتودافى : ٢٤٦ و ٢٧٧
أوروج : ٢٨٣
أيدى ريس : ٢٨٤
ايزابيلا ، الكاثوليكية : ٥٨ و ٥٩ و ١٣٣
و ١٣٤ و ١٣٨ و ١٤٢ — ١٤٨
و ١٦٤ و ١٦٩ و ١٧٠ و ١٧٣
و ١٧٤ و ١٨٠ و ١٩٣ و ١٩٧
و ٢٢٦ و ٢٣٢ و ٢٣٩ و ٢٤٠
و ٢٦٠ و ٣١٢

(ب)

باديس المظفر : ١٩ و ٢٠٩
بايزيد الثانى : ١٦٦ و ٢٥٢ و ٢٥٣
و ٣٧٢
بحر الرقاق : ٨٣ و ٨٤ و ٩٤ و ٩٧
و ٩٨
البرتغال : ٦١ و ١٣٢
برشلونه : ٥٤ و ٣١٣
البربر : ١٤ و ١٩ و ٤١ و ٤٧ و ٤٨
و ٥٣ و ٣٢٤
برونات (الدون) : ٣٧٣
بسطة : ٤١ و ١٢٠ و ١٦٨ و ١٧٠
و ١٧١ و ١٧٤
بطرنا : ٣١ و ١١٢
بطليوس : ١٣ و ٢٣
بكاتوستى : ٣١٠
بلانش دى بوربون : ١٠٨ و ١٣١
بلد الوليد : ١٣٣ و ١٣٩ و ٢٤١
بلش مالقة : ٨٩ و ١٠٠ و ١٥٥ و
١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٧

الفونسو الحادى عشر : ٩١ و ٩٤
و ٩٦ و ١٢٩ و ١٣٠ و ١٣٢
الفونسو الثالث ، ملك أراجون : ١٣٣
و ١٣٥
الفونسو الرابع : ١٣٥
الفونسو الخامس : ١٣٧
الفونسو السادس : ٥١ و ٥٦
الفونسو ريمونديز : ٥٥ و ٥٧ و ٦٢
الفونسو هنريكز : ٦٢
الفونسو ملك البرتغال : ١٣٩ و ١٤٠
القادر بن ذى النون : ٥٦
القاهرة : ٩٨ و ١٦٥ و ١٦٩ و ٣٦٩
اللسانه : ١٥٥
المأمون بن ذى النون : ٥٦ و ٣٨٠
المدجنون : راجع حرف م
المرج ، (لافيجا) : ١٥ و ٤٦ و ١١٣
و ١٢٠ و ١٧٦ و ١٧٩ و ١٨٢
٣٢٧ و ٣٢٨
المرية : ٢٤ و ٢٨ و ٤١ و ٤٤ و ٨٨
و ٨٩ و ٩٣ و ٨٦ و ١٢١ و ١٦٥
و ١٧٠ و ١٧٤ و ١٧٦ و ١٩٩
و ٢٨٣ و ٣٢١
المقرى : راجع حرف م
المنكب : ٧٩ و ٨١ و ٨٧ و ١٥٦
و ١٧٠ و ١٧٦
الناصر ، سلطان مصر : ٩٨
الوادى آشى ، أبو عبد الله الحداد :
٣٦٩ و ٣٧٠
الينورادى كزمان : ١٣٠ و ١٣١
انتكيره : ٤١ و ١١٦
اندرش : ١٧٦ و ٨٦ و ١٩٩
اندريس : ٣٧٦
أندلس : ١٠ و ١١ — ١٣ و ٣٠ و ٣١
و ٣٦ و ٤١ و ٤٦ و ٤٧ و ٥٠ —
٥٤ و ٥٧ و ٦١ و ٧٣ و ٨١
٩٩ — ١٠٣ و ١٠٥ و ١٤٥ و ١٦٥

بنسبية : ١٣ و ٢٠ و ٢٥ و ٢٦ و ٤٣
 و ٤٧ و ٥٦ و ٦٩ و ٢٦٤ و ٢٨٠
 و ٢٨١ و ٢٨٥ و ٢٨٧ و ٢٩٠
 و ٢٩٤ و ٣٢٠ و ٣٢١ و ٣٦٠
 بليدا : ٣٠٧
 بنو أشقيلولة : ٢٩ و ٣٨ و ٧٤ و ٧٥
 و ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٣
 بنو الأحمر : ١٥٧ و ٢٠٥ و ٣٢٢
 و ٣٢٣ و ٣٣٠ و ٣٤١
 بنو الثغرى : ١٢٤ و ١٨٢ و ٢٢٩
 بنو العلاء ، شيوخ الغزاة : ٨٢ و ٨٦
 و ٩١ و ٩٢ و ٩٤ و ٣٦ و ٣٢٣
 و ٣٢٤
 بنو سراج : ١١٧ و ١١٨ و ١٢٤
 و ١٥٢ و ٢٢٦
 بنو عامر : الموريسيكون : ٢٧٨
 و ٢٧٩
 بنو مرين : ٣٤ و ٤٨ و ٧١ و ٧٣
 و ٨٠ و ١٠٢ و ١٢٣ و ١٤٦
 و ٣٢٣
 بنو نصر : ٢٧ و ٤٠ و ٩٥ و ١٠٢
 و ١٥٠ و ٣٢٢
 بنو وطاس : ١٢٣ و ١٩٩ و ٢٠٦
 و ٢٠٧
 بياسة : ١٣ و ٢٨ و ٦٦ و ٩٢ و ١٥٩
 بيدرو الأول ، ملك اراجون : ٦٥
 بيدرو الثاني ، ملك اراجون : ٦٨
 بيدرو الثاني ملك قشتاله (دون
 بطره) : ١٠٧ و ١٠٨ و ١٠٩
 و ١١٢ و ١٣١ و ١٣٦
 بيدرو الثالث ملك قشتاله (القاسى) :
 ١٣١ و ١٣٢ و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٣٥
 بيدرو الرابع ملك اراجون : ٣٥ و ١٣٦
 بيدرو ، الدون : ٩١ و ٩٢ و ١٢٩
 (ت — خ)
 قاشقين بن يعقوب : ٨٧

تركويمادا : ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٤١
 تركيا : ٤٥ و ١٦٦
 تطاون : ٨٧ و ٢٨٧
 تلمسان : ٧٣ و ٧٥ و ٨٥ و ٨٦ و ١١٥
 و ٢٩٨ و ٣٦٩ و ٣٧٠
 تونس : ١٢ و ٢٦ و ٢٨ و ٢٩ و ٩٥
 و ١١٥ و ١١٨ و ٢٨٥ و ٢٩٩
 ثريا الرومية : ١٥٠ و ١٥١ و ٢٢٠
 ثويداد ريال : ٣٠٥
 جاييم الاول ، ملك اراجون : ٢٥ و ٤٣
 و ٦٨ و ٦٩ و ١٣٤ و ١٣٦
 جاييم الثاني : ٨٨ و ١٣٥
 جارسيا راميرز : ٦١
 جان بلاط ، السلطان : ٢٢٣
 جبل طارق : ٥٧ و ٨٨ و ٩٤ و ٩٦
 و ٩٩ و ١٠٠ و ١٠٦ و ١١٦
 و ١٢٠ و ١٢٢ و ١٢٩ و ١٣٠
 و ٢٨٣ و ٢٢٥
 جنة العريف : ١٠٦ و ٢١٤ و ٢٢٠
 جنوة : ٢٨١ و ٢٨٢ و ٢٢٨
 جنزالقو دي كردوفا : ١٨٥
 جويريرو : ٢٧٧
 جيان : ١٣ و ٢٨ و ٣١ و ٦٦ و ١١٣
 و ١٢٢ و ١٧٠
 حامد الثغرى : ١٥٧ و ١٦٣
 حبوس بن ماكسن : ١٩
 حدار ، نهر : ١٥ و ٢٠٩ و ٢١٠
 خوان ، الدون : ٢٧٢ و ٢٧٣
 خير الدين ، بارباروس : ٢٨٣ و ٢٨٤
 (د — ز)
 دانية : ١٣ و ٢٥ و ٢٨٤ و ٢٩٤
 و ٣٢١
 دوزي ، المستشرق : ٥٦ و ٣٧٦
 ديرنبور ، المستشرق : ٤٤ و ٣٧٦
 ديزا : ٢٢٨ و ٢٤١
 ديوان التحقيق : ٥٩ و ٢٢٥ و ٢٢٨
 و ٢٣٢ و ٢٣٣ — ٢٥٢ و ٣٧١
 و ٣٧٣

شارلکان (شارل الخامس) ؛ ١٧
و ٢٠٩ و ٢١٤ و ٢٤٨ و ٢٥٦
و ٢٦٠ و ٢٦٢ و ٣٧٢

شارلمان ؛ ٥٣

شاطبة ؛ ١٣ و ٢٥

شانت ياقب ؛ ٦٠

شريس ؛ ١٤ و ٢٣ و ٢٨ و ٣٣ و ٣٦
و ٨٢ و ٨٣

شفارتز ، برتولد ؛ ١٦٠

شلوبانية ؛ ٧٩ و ١١٤ و ١١٥

شتتفي ؛ ١٨٠

شتتمرية ؛ ٣٣

شنيل ؛ ١٥ و ١٥٥ و ١٧٩ و ١٩٢
شوقي ، أحمد ؛ ١٩٢ و ٢٢٠

(ص — ط)

صالح ريس ؛ ٢٨٤

صلاح الدين ، السلطان ؛ ٥٣ و ٣١٩

صقلية ؛ ١٣٤ و ١٣٦ و ١٦٦ و ٢٩١

طارق بن زياد ؛ ١٤ و ٣١٤

طرغود ؛ ٢٨٤

طليطلة ؛ ١١ و ٤٤ و ٥٠ و ٨١

طنجه ؛ ٨٤ و ٨٦

الطوائف ؛ ١١ و ١٢ و ١٩ و ٨٢
و ٣٤١

(ع . غ)

عائشة الحرة ؛ ١٤٩ و ١٥٠ — ١٥٣

و ١٥٥ و ١٥٦ و ١٦٠ و ١٩٢
و ١٩٧

عبد الحق بن خالد ؛ ٧٢ و ٩٣

عبد الرحمن بن الحكم ؛ ٤٦ و ٣٨٢

عبد الرحمن الناصر ؛ ٥٣ و ٥٦

و ١٥١ و ٣١٤ و ٣١٧ و ٣٧٨
و ٣٧٩

عبد العزيز المريني ؛ ٣٥٦ و ٣٥٧

عبد المؤمن ، خليفة الموحدين ؛ ٢١٨
و ٣١٩

دي آجلار ؛ ٢٣٤

دي ليرما ، الدوق ؛ ٢٨٩

دي هيتا ، ٢٢٠

واميرو ، ملك نافار ؛ ٦١

ربيرا ، المطران ؛ ٢٨٩ و ٢٩٠

رندة ؛ ٤١ و ٤٧ و ٧٥ و ٨٤ و ٨٩

و ١٠٠ و ١١٩ و ١٢٠ و ١٥٧

رومة ؛ ١٩٧ و ٣٢٨

ريموند برنجار ؛ ٥٤

زاوي بن زيري ؛ ١٩

الزغل ؛ راجع ال

الزلاقة ؛ راجع ال

زناته ، قبيلة ؛ ٤٨ و ٧١

زيان ، أبو جميل ؛ ٢٤ و ٢٥ و ٢٦
و ٦٨ و ٣٣٦

زرياب ؛ ٣٨٢

زيدان ، السلطان ؛ ٢٨٧ و ٢٩٠ و ٣٧٤

(س . ش)

سالادو ؛ ٩٧ و ١٣٠

سانشو الثاني ، ملك قشتالة ؛ ٥٦

سانشو المتوحش ؛ ١٢٨

سانشو الكبير ؛ ٦٠

سانشو السابع ملك نافار ؛ ٦٥

سيانشو ابن الفونسو العاشر ؛ ٨٠

و ٨١ و ٨٢ و ٨٣

سبته ؛ ٣٦ و ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ و ١٠٢

و ١١٠

سرقسطة ؛ ١٣ و ٥١ و ٢٩٠

سعد بن اسماعيل ، السلطان ؛

١٢١ و ١٢٢ و ١٢٤ و ١٣٤

١٤٧ و ٣٣١

السفرديم ؛ ٤٨

سكوت ؛ ٣٩ و ٤٠ و ٣١٢

سلا ؛ ٢٨١ و ٢٩٨ و ٣٥٤

سليم الأول ؛ ٢٨٤

سيرفانتس ؛ ٢٧٩ و ٢٨٥

سيير انقادا (جبل شلير) ؛ ١٥ و ٤١

و ١٨٠ و ١٨٢ و ٢٦٧

فرديناند ملك نابيل ؛ ١٦٨ و ١٦٩
فرديناند صاحب انتكيرة ؛ ١١٦ و ١٣٦
و ١٣٧

فرديناند الخامس (الكاثوليكي) ؛ ٥٨
و ٥٩ و ١٣٤ و ١٣٨ و ١٤٢
و ١٤٨ و ١٥٣ و ١٥٨ و ١٦١
و ١٦٤ و ١٦٦ و ١٦٨ و ١٧١
و ١٧٦ و ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٩
و ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٧ و ١٩٩
و ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٣٢ و ٢٣٤
و ٢٤٠ و ٢٤٦ و ٢٤٨ و ٢٦٠
و ٢٦١

فرديناند دى قالور (محمد بن امية) ؛
٢٦٧ و ٢٦٨ و ٢٦٩ و ٢٧٠
و ٢٧١
فيليب الثانى ؛ ٢٦٠ و ٢٦٢
و ٢٦٤ و ٢٧٠ و ٢٧٤ و ٢٨٨
و ٢٨٩ و ٢٧٢ و ٢٧٤

فيليب الثالث ؛ ٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٨٩
و ٣١٠ و ٣٧٤

قادس ؛ ٣٣ و ١٢٧
قرطاجنة ؛ ١٣ و ٣٠
قرطبة ؛ ١٣ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٦ و ٢٨
و ٤٧ و ٦٦ و ٦٧ و ١١٩ و ٣٢٠
و ٣٢١

قرمونة ؛ ٢٨ و ٣١ و ٨٢
قسطنطينية ؛ ١٢٤ و ١٦٤ و ١٦٥
و ١٦٦ و ١٩٧ و ٢٥٣ و ٢٥٥
و ٢٨٢ و ٣١٧ و ٣٢٨

قشتالة ؛ ٢٠ و ٢٥ و ٣١ و ٤٣ و ٤٤
و ٥٠ و ٥٣ و ٦١ و ٦٢ و ٦٥
و ٦٦ و ٨٠ و ٨١ و ٩٢ و ١٠٩
و ١١٤ و ١٢١ و ١٣٠ و ١٦٨

قطلونيه ؛ ٦١ و ١٣٤
قمارش ؛ ٨٣ و ١٥٣ و ٢١٢ و ٢١٣
القمامة ؛ ١٦٦ و ١٦٧

كارلوس ، أمير فيانا ؛ ١٣٧

عثمان بن أبى الغلاء ؛ ٨٦ و ٨٨
و ٩١ و ٩٣ و ٩٥

عثمان داي ؛ ٢٨٥ و ٢٩٨
العرب المنتصرون ؛ راجع الموريسكيون
على بن أحمد الفسانى ؛ ٣٣٨
على العطار ؛ ١٥٤
على بن ناشفين ؛ ٤٧

على بن محمد بن خروف ؛ ٣٣٨
عمر بن الأفطس ؛ ٣١٧
عمر باى ؛ ٢٨٥

عمر بن عبد المجيد الأزدي ؛ ٣٣٨
عيسى بن سليمان الرعينى ؛ ٣٣٨
غرناطة ؛ ١١ و ١٣ و ١٤ و ١٦ و ١٩

و ٢٣ و ٢٧ و ٢٩ و ٣٠ و ٤١
و ٤٤ و ٤٥ و ٤٧ و ٤٨ و ٥٧
و ٨٠ و ٨٥ و ٨٨ و ٨٩ و ٩٢
و ٩٣ و ١٠٦ و ١١٢ و ١١٤
و ١١٦ و ١١٨ و ١٢١ و ١٢٥
و ١٤٦ و ١٥٢ و ١٥٤ و ١٥٩
و ١٦١ و ١٦٧ و ١٧٣ و ١٧٥ و ١٧٩
و ١٨٣ و ١٨٦ و ١٩٠ و ١٩٧
و ١٩٨ و ٢٠٣ و ٢٢٥ و ٢٢٨
و ٢٣١ و ٢٦٤ و ٢٦٩ و ٢٧٠ و ٢٨٢
و ٢٨٥ و ٣٢٠ و ٣٢١ و ٣٢٤
و ٣٢٦ و ٣٢٨ و ٣٤٣ و ٣٦٨
و ٣٧٠ و ٣٧١

غمارة ؛ ١٥٧ و ١٦٣

(ف . ق . ك)

فاس ؛ ٧٢ و ٧٣ و ٧٥ و ٨٢ و ٨٧
و ٨٨ و ٩٤ و ١٥٣ و ٢٠٢ و ٢٠٦
و ٢٣٤ و ٢٣٩ و ٢٩٨

فرج بن اسماعيل ؛ ٨٤ و ٨٥ و ٨٩
فرديناند الثالث ؛ ٢٣ و ٢٥ و ٣٠
و ٣٢ و ٣٣ و ٦٥ و ٦٦ و ٦٧
و ٦٨ و ١٢٧

فرديناند الرابع ؛ ٨٨ و ١٢٨ و ١٢٩

٨٥ و ١٢٧ و ٢٠٩ و ٢١٦ و ٢٤١ و ٢٤٣

محمد بن المحروق ؛ ٩٣ و ٣٢٣
محمد الخلوغ ؛ ٨٥ و ٨٧ و ٨٨
و ٣٢٢ و ٢٤١ و ٣٤٣

محمد بن أمية ؛ راجع فردنياندي
دي قالور

محمد بن عبد المنعم الجلياني ؛ ٣٣٩
محمد بن يوسف بن الأحمر ؛ ٢٧-٣١
و ٣٣ - ٤٠ و ٥٧ و ٧١ و ٨٩
٢٠٩ و ٣١٤ و ٣٢٢ و ٣٣٣
و ٢٤١

محمد بن يوسف الثاني ؛ ١١٣ و ١١٤
و ١١٥ و ٣٦١

المدجنون ؛ ٤٢ و ٤٣ و ١٥١ و ١٧٤
المرايطون ؛ ١٢ و ١٩ و ٤٢ و ٤٦
و ٤٨ و ٤٩ و ٥١ و ٧٥ و ٧٧
و ٨٢ و ١٤٦ و ٣١٨ و ٣٨١

مراد الرئيس ؛ ٢٨٥
مراكش ؛ ٧٣ و ٩٨ و ١٦٥ و ٢٨٧
مربلة ؛ ٧٩ و ١٠٠

مرسية ؛ ١٣ و ٢٠ و ٢٤ و ٢٦ و ٣٠
و ٤٤ و ٤٧ و ٦٧ و ١١٣ و ١١٨
و ٢٨١ و ٣٢٠
مريمة ؛ ١٥٥

مصر ؛ ٤٥ و ٩٩ و ١٥٩ و ١٦٤ -
١٦٧ و ١٦٩ و ٢٣٣ و ٢٥٣ و ٢٥٤
و ٢٩٦ و ٢٩٨

مطرف الاشبيلى ؛ ٣٤٠ و ٣٤١
المعتصم بن صمادح ؛ ٣١٨
المعتمد بن عباد ؛ ٣١٨

المقري ؛ ١٦ و ٣٨ و ٢٠٠ و ٢٠٦
٢٠٧ و ٢٣٠ و ٢٣٤ و ٢٩٨ و ٣٦١
و ٣٦٤ و ٣٨١

مليلة ؛ ١٩٩

كمنيس ؛ ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٤٨ و ٣١١
و ٣١٢

الكورتيس ؛ ٣١ و ١٢٠ و ١٣١ و ١٣٦
كوزمي بن عامر ؛ ٢٦٤ و ٢٧٨ و ٢٧٩
كوندي ؛ ٣١٣ و ٣٧٦

(ل. م. ن)

لاين پول ؛ ٩١٤
لقنت ؛ ١٣ و ٣٠ و ٢٩٤
لورنتي ؛ ٢٤٢ و ٢٩٧ و ٣٠٨
لوس قيليس ؛ ٢٧٠

لوشة ؛ ١٥ و ٤١ و ١٠٥ و ١٥٤
و ١٥٨ و ١٦٢ و ١٧٤
لى ، هنري تشارلس ؛ ٣٠٦ و ٣٠٧
و ٣١٠ - ٣١٢

ليفي بروقنسال ؛ المستشرق ؛ ٣٧٧
و ٣٨٠

ليون ؛ ٥٣ و ٦١ و ٦٢ و ٦٥
مارتن الأول ؛ ٥٧ و ١١٥ و ١٣٦
مارتيري ، بيترو ؛ ١٩٨ و ٢٣٣ و ٢٨٣
ماسدي ؛ ٣٧٦

مالقة ؛ ٢٩ و ٣٨ و ٤١ و ٤٤ و ٧٨
و ٧٩ و ٨١ و ٨٤ و ٨٥ و ٨٩
و ١٠٠ و ١٠٨ و ١٤٧ و ١٥٤
و ١٥٧ و ١٦١ و ١٦٣ و ١٦٤
و ١٦٥ و ١٦٧ و ١٦٩ و ٣٢٥

محمد بن ادريس المريني ؛ ٣٤
محمد بن اسماعيل ؛ ٩٢ - ٩٥
محمد الأحنف ؛ ١٢١ و ١٢٢
محمد الزغير ؛ ١١٨ و ١١٩

محمد الشيخ ؛ ١٢٣
محمد الفنى بالله ؛ ٥٧ و ١٠٥ - ١٠٨
و ١١١ - ١١٣ و ٣٢٣ و ٣٤١
و ٣٦٢

محمد الفاتح ؛ ٢٤
محمد الفقيه ؛ ٧١ و ٧٤ و ٧٩ و ٨١ -

- الموحدون ؛ ١٢ و ١٩ و ٢٠ و ٢٣ و ٢٥ و ٣٤ و ٣٥ و ٤٢ و ٤٨ و ٤٩ و ٦٢ و ٦٦ و ٧١ و ٧٢ و ٧٥ و ١٤٦ و ١٥٩ و ٣١٨ و ٣١٩ و ٣٢٠ و ٣٢٧ و ٣٣٣ و ٣٨١ و
- الموريكيون ؛ ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٣١ و ٢٥٠ و ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٥ و ٢٧٥ و ٢٧٦ — ٢٨٠ و ٢٨٧ — ٣٠٠ و ٣٠٢ و ٣٠٣ و ٣٠٥ و ٣٠٦ و ٣٠٨ و ٣٧٢ و ٣٧٣ و
- موسى بن أبى الغسان ؛ ١٨١ — ١٨٤ و ١٨٧ — ١٨٩ و
- موسى بن ميمون ؛ ٤٨ و ٣١٩ و
- ميلان ، أنطونيو ؛ ١٦٧ و ١٦٨ و
- مونتييل ؛ ١٠٩ و ١٣١ و
- منديخار ؛ ٢٦٩ و
- نابل ؛ ١٣٤ و ١٣٧ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٦٩ و
- ناقار ؛ بلاد البشكنس ؛ ٥٣ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ١٣٧ و
- ناقاريتى ؛ ٢٩٧ و
- النصارى المعاهدون ؛ ٤٦ و ٤٧ و
- نصر ، أبو الجيوش ؛ ٨٧ و
- نعيم بن رضوان ؛ ١٨٢ و ١٨٣ و
- نونيو دى لارا ؛ ٣٦ و ٧٦ و ٧٧ و (ه. و. ي.)
- هشام بن عبد الرحمن ، ٤٩ و
- هنرى الثالث ، ملك قشتاله ؛ ٣١٤ و ٣٣١ و
- هنرى الرابع ، ملك فرنسا ؛ ٢٨١ و
- هنرى الرابع ، ملك قشتاله ؛ ١٢٢ و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤٧ و ٣٣١ و
- هنرى دى ترستمارا ؛ ١٠٨ و ١٠٩ و ١٣١ و ١٣٢ و ١٣٦ و
- وادی آش ؛ ٢٨ و ٢٩ و ٤١ و ٦٦ و ٨٣ و ٨٩ و ٩٣ و ١٠٦ و ١١٨ و ١٢٠ و ١٥٤ و ١٦١ و ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٢ و ١٧٤ و ١٧٦ و ٣١٤ و
- وهران ؛ ١٧٢ و ٢٣٤ و ٢٩٦ و
- يحيى بن ذى النون ؛ ٥٠ و
- يحيى بن غانية ؛ ١٩ و
- يعقوب المنصور ، السلطان ؛ ١٢ و ٥١ و ٥٣ و ٦٢ و ٧٢ و ٧٩ و ٩٧ و
- يغمراس بن زيان ؛ ٧٣ و ٧٤ و
- اليهود المنتصرون ؛ ٢٣٨ و ٢٣٩ و ٢٤٩ و
- يوحنا الأول ، ملك قشتالة ؛ ١٣٢ و
- يوحنا الثانى ؛ ١١٦ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٢ و ١٣٢ و ١٣٧ و ١٣٨ و
- يوسف أبو الحجاج ؛ ٩٥ و ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ — ١٠٠ و ١١١ و ١١٠ و ١٥٠ و ١٦٠ و ٣٤١ و ٣٤٨ و ٣٥٠ و ٣٥٢ و ٣٦٤ و
- يوسف بن الأحمر ، (الثانى) ؛ ١١٣ و ١١٤ و ٣٦٧ و ٣٦٨ و
- يوسف المستنصر ؛ ٢٠ و ٢٥ و ٧٢ و
- يوسف بن تاشفين ؛ ١٢ و ١٩ و ٥١ و
- يوسف بن سراج ؛ ١١٧ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٠ و
- يوسف بن كماشة ؛ ١٨٥ و ١٩٩ و
- يوسف بن محمد ؛ ١١٥ و ١١٦ و ١١٧ و